بلال فضل

في أحضان الكتب...



في أحضان
الكتب...

في أحضان الكتب

بلال فضل

تصميم الغلاف: وليد طاهر

الطبعة الأولى ٢٠١٤

تصنيف الكتاب: مقالات / أدب

© دار الشروق

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر القاهرة مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com

رقم الإيداع ١٧٣٥٦/ ٢٠١٣
ISBN 978-977-09-3267-4

بلال فضل

في أحضان الكتب...

دار الشروق

إلى أحب بقاع الدنيا إليّ

إلى تحويشة عمري وبهجة زماني

وشريكة صباحاتي وونيسة لياليّ ورفيقة ضُهريّاتي

إلى مغْنِيتي عن سؤال اللئيم وصُحبة الأنذال

... إلى مكتبتي

أمد الله عمري في أحضانك

المحتويات

أجدع من أيّ مقدمة

ـ «لطالما اعتبرت الكتب كائنات حية بعد أن صادفت مؤلفين جددا غيَّروا حياتي قليلا، فبينما أمر بفترة ارتباك ما أبحث عن شيء لا أستطيع تحديده، إذا بكتاب معين يظهر، ويتقدم مني كما يفعل صديق، يحمل بين دفتيه الأسئلة والأجوبة التي أفتش عنها».

الممثلة العظيمة ليف أولمان من مذكراتها البديعة (أتغير)

ـ «ولهذا السبب لن تموت الكتب أبدا، هذا مستحيل. إنه الوقت الوحيد حيث نذهب حقا إلى داخل عقل أحد الغرباء، ونجد فيه أن إنسانيتنا المشتركة هي من يفعل ذلك، لذا، فالكتاب لا ينتمي فقط للكاتب، بل ينتمي للقارئ أيضا، ثم يصير بعدها للاثنين معا أن يجعلاه على ماهو عليه».

الروائي الأمريكي بول أوستر

ـ «تتكدس فوق طاولتي الكتب التي سأقرأها والتي يجب قراءتها، مصطفة فوق بعضها البعض، وللأسف لن أستطيع قراءتها كلها، وكلما ارتفع مستوى عمود الكتب المكدسة فوق بعضها أضع قسما منها في المكتبة دون قراءتها، ويتملكني إحساس وحزن غريبان لأنني لم أستطع قراءتها، وهناك أيضا كتب قرأتها سابقا أطلق عليها مصطلح «كتبي»، وهي مجموعة الكتب التي أشعر بحاجة ماسة لقراءتها مرة أخرى قبل أن أموت. ماهو الحزن العميق الذي أشعر به؟ أتعرف ما هو؟ انظر إلى الكتب الموجودة في المكتبة وخاصة تلك التي أشعر بالحاجة لقراءتها وأقول :«واأسفاه، سأموت دون قراءة هذه الكتب»، وكأن هناك فرقا بين الموت دون قراءة هذه الكتب أو الموت بعد قراءتها، نعم إنها حماقة خاصة بالإنسان وحده. عندما كنت أمر من حرم جامع نور العثمانية وأرى السياح الكهول الذين صار كل عضو في جسمهم يرتجف ويهتز بسبب الكهولة، فأقول لكل منهم في نفسي: ماذا بقي لك في هذه الحياة؟ لم لا تموت في المكان الذي أنت فيه؟ ما الذي ستحصل عليه من كل هذا التجوال؟ أتريد أن ترى الدنيا، تقوم بذلك وكأن هناك فرقا بين أن تموت بعد رؤية السوق المغلق أو أن تموت دون رؤيته؟ في الحقيقة لا يوجد أي فرق بين حماقتي حين أخشى الموت قبل قراءة هذه الكتب وبين حماقة هؤلاء السياح الكهول الذين برزت عظامهم حين يخشون الموت قبل رؤية منطقة أفيسوس، بيد أن الإنسان لا يرى حماقته، بل كم هو جميل أنه لا يراها».

كاتبي الأحب والأجمل التركي عزيز نيسين

فن مكافحة الكاكّا!

حتى لو قررت أن تكابر وتواصل تسمية الأمور بغير مسمياتها لكي تبدو نظيفا ومهذبا وعف اللسان، فلن ينفي ذلك أبدا حقيقة أن العالم من حولنا لا يزال مليئا بالغائط، وأننا كلما نجحنا في إزالة طبقة منه تكشّفت لنا طبقات أخرى بعضها فوق بعض، وأنه لا أمل لنا سوى أن نقاوم ونحن نصدق أننا سنعيش يوما أقرب مما نتصور في عالم به غائط أقل.

لكن كيف سنفعل ذلك؟ ببساطة، سنفعله لو صدق كل منا نفسه وحارب فقط بالسلاح الذي يجيد استخدامه، والذي يحب استخدامه أيضا، كل الأسلحة الآن مهمة لإيقاف زحف الغائط علينا: الهتاف العالي، المظاهرة الحاشدة، النكتة الحراقة، الجرافيتي المدهش، الحركة وسط الغلابة، التسخيف على السخفاء، كسر القداسة التي يصطنعها الأغبياء لأنفسهم، نشر المعرفة، فضح الأكاذيب بالكتابة، بالمزيد من الكتابة، فليس هناك ما هو أخطر على الكذابين وناشري الغائط من الكتابة.

لكن، هل الكتابة خطيرة حقا؟ هل هي مجدية أصلا؟ أم أن الكتّاب يزعمون ذلك حبا لها وتصبيرا لأنفسهم على غباوات الواقع، سأحيلك هنا إلى الكاتب المصري العظيم الذي يعاد اكتشافه كل يوم، عمنا توفيق الحكيم وبالتحديد إلى كتابه الجميل (عصا الحكيم) الذي يطرح فيه سؤالا مباشرا «هل المداد هباء؟»، تسأله العصا قائلة: «يُخيّل إليّ أن الكتابة هي أضعف وسيلة للتأثير في المجتمع، وذلك أن من لديه في الغالب حُسن الاستعداد لأن يسمع نجده في أكثر الأحيان لا يقرأ، ومن يقرأ فهو قلّما يسمع، ولو كان في الكتابة نفع، لرأينا المجتمع قد تغير منذ أمد طويل، ولكن كل قارئ يقرأ وكأن الكلام لا يعنيه، وإذا فطن فإنه يبتسم، ويطوي الورق ويقول: «كلام!»، أو يقول «تمام»، ثم ينسى كل شيء بعد حين، لماذا ولمن تجهدون أنفسكم إذن يا معشر الكتاب في إهراق هذا المداد الذي لن تبتلعه أرض ولا نفس؟».

على عكس عادته في الكثير من فصول الكتاب لا يرد توفيق الحكيم على ادعاء عصاه، بل هو على عكس المتوقع يتفق معها بنبرات تشعر من خلالها بإرهاق كاتب كان يكتب هذا الكلام عام ١٩٥٤، وكان قد بدأ الكتابة قبل ذلك التاريخ بثلاثين عاما على الأقل، ولكنه إرهاق لا يصل إلى حد اليأس، بل هو إرهاق واقعي يُذَكِّر صاحبه نفسه بأهم حقيقة لا يجب أن ينساها الكاتب دائما وأبدا، وهي أن مشواره له طبيعة خاصة ومختلفة، فها هو يقول لعصاه: «حقا هو جهد لا يُرى له أثر، فالماء يروي الشجر، وتحصد منه بيدك الثمر، ولكن المداد، ماذا ينبت؟ أين هو الثمر الذي نراه بأعيننا، قد أينع في الناس بفعل المداد

والقلم؟ إنه لعمل مجحف مُيْئِس، ومع ذلك يكابده صاحبه ويصر عليه، وهو موقن أن شيئا لن يتغير، وأن أنفسنا لن تتحول، على الأقل بالسرعة التي تشعره بلذة النجاح، ولكنه يمضي في الكتابة وينسى النتيجة، إلى أن يعتاد العمل دون أن يسأل عن الأثر، وكأنه ثور الساقية يدور بها مغمض العينين، لا يدري أذهب ماؤها في الهباء أم ذهب في الغيطان؟»، وهنا تجيبه العصا وهي رجع صدى أفكاره بقولها: «ربما كان هذا هو السبب في قصور القلم في الظاهر وهباء مداده، إن غيطان النفوس تحتاج إلى أجيال، حتى تصل إلى أغوارها مياه الأفكار، ويهيئ أديمها للنبت والإثمار».

لكن، إذا نجح توفيق الحكيم في تأكيد إدراكك لمشقة مهمتك وطبيعتها الخاصة، فإن ذلك ليس كافيا إذا لم تتذكر دائما أن تواصل الغناء وأنت تقاوم عفونة واقعك. في مذكراته البديعة «أعترف أنني قد عشت» التي ترجمها محمد محمود صبح وأصدرتها المؤسسة العربية للدراسات والنشر قبل سنوات طويلة، يقول الشاعر التشيلي الأعظم بابلو نيرودا: «كنت على الدوام أزور في موسكو شاعرا كبيرا هو الشاعر التركي ناظم حكمت، وهو كاتب خرافي أسطوري، كانت حكومة بلده الغريبة عن شعبه قد سجنته ١٨ سنة. لقد اتُّهم ناظم بأنه كان يريد إثارة فتنة وتمرد في صفوف البحرية التركية فأدانوه بكل عقوبات جهنم. وجرت المحاكمة على ظهر بارجة عسكرية، كانوا يحكون لي كيف أنهم جعلوه يمشي حتى درجة الإنهاك على جسر البارجة، ومن بعد أدخلوه إلى المرحاض حيث كان الغائط يعلو أكثر من نصف متر، فشعر أخي الشاعر بالإغماء وخارت قواه، كانت الرائحة الكريهة

تجعله يتقزز ويرتعد، عند ذلك فكر: لا بد أن الجلادين يرقبونني من نقطة ما، فهم يريدون أن يروني أتداعى، يريدون أن يروني تعيسا بائسا، فانبعثت قواه في أنفة وعنجهية وبدأ يغني، أولا في صوت خفيض، ثم من بعد بصوت أكثر علوًّا، في النهاية شرع يغني ملء حنجرته، غنّى الأغاني كلها، الغزل الذي كان يذكره، جميع قصائده التي نظمها، مواويل الفلاحين، أناشيد شعبه النضالية، غنّى كل ماكان يعرفه من غناء، وهكذا انتصر على الرجس والنجاسة والعذاب، عندما قصّ عليّ ذلك، قلت له: «يا أخي إنك بهذا قد أجبت عنا جميعا، فلم نعد نحتار فيما نفعله، فها نحن جميعا معشر الشعراء ، نعرف متى يجب علينا أن نبدأ الغناء».

حتى لو لم تكن كاتبا ستجد نصيحة ناظم حكمت مهمة جدا: طالما اخترت أن تكافح الغائط المحيط بك، واصل الغناء دائما فبالغناء وحده ستنتصر على جلاديك، وتهزم الرجس والنجاسة والعذاب.

الخرتتة!

لا تطلب من الخراتيت أن تُوسِّع زاوية رؤيتها أبدا، صدقني يمكن أن تقنع الخرتيت بضرورة التحليق بخياله عاليا فقط إذا أقنعت الصقر بفضائل الاستقرار خامدا على الأرض، لذلك لا تحاول أبدا تغيير منطق الكائنات، وحافظ على إنسانيتك من الخرتتة، واسأل الله السلامة.

كل المراجع العلمية تجمع على أن الخرتيت مُبتلى بقصر النظر، مما يجعله يهاجم أولا قبل أن يتبين ليكتشف الهدف الذي يهاجمه بعد فوات الأوان، قِصَرُ النظر هذا يجعل الخرتيت أحيانا حين دفاعه عن نفسه وصغاره ضد المهاجمين يقوم بدهس صغاره والقضاء عليهم بنفسه، بسبب عيب قاتل كهذا لا يستفيد الخرتيت من وزنه الثقيل الذي يجعله من أضخم الكائنات الحية، ولا من قدرته على الجري بسرعة تقترب من سرعة الحصان برغم أنه لا يستطيع مواصلة الجري كالحصان، وربما لذلك يُفَضِّل الخرتيت أن يعيش دائما بمفرده في عزلة تامة، لكنه مع ذلك لا يُفلت من الكائنات التي تلتصق بجلده السميك لتعيش على ما يوجد به من فضلات، ولا من الطفيليات التي

تمتص من جسده ما يعادل أربعة ليترات دم يوميا، وهو ما يُسَبِّب له حالات من الغضب الجنوني جلبت له لقب أشد الكائنات الحية غباءً، وبرغم كل هذا فإن حيوان الخرتيت لا يشكل أبدا نفس الخطورة على البشرية التي يشكلها البشر الذين قرروا أن يتحولوا إلى خراتيت بمحض إرادتهم.

في مسرحيته البديعة «الخرتيت» يحكي المؤلف المسرحي الأشهر يوجين يونسكو عن مدينة صغيرة تشهد ظاهرة تقضُّ مضاجع سكانها، هي رؤيتهم لعدد من الخراتيت تتحرك في شوارع المدينة، فيظنها البعض في البدء هاربة من حديقة حيوانات قريبة، ثم يتضح أن الخراتيت التي كان يراها الناس ليست سوى أنفسهم، فقد نمت قرون خرتيتية على رءوسهم جميعا بما فيهم الرجل الذي كان يسميه الجميع رجل المنطق، وأصبحت جلودهم خشنة سميكة وتحولت أصواتهم إلى خوار، ليصبحوا قطيعا من الخراتيت ينشر الخراب في مدينتهم، ولا يصمد في مواجهة هذه الخرتتة الشاملة سوى مواطن وحيد يصر على الاحتفاظ بآدميته ويرفض أن يتخرتت كباقي سكان مدينته مهما كلفه ذلك من ثمن.

أراد يونسكو أن يقدم في مسرحيته صرخة ضد مخاصمة البشر لحريتهم وفرديتهم ليقبلوا الحياة في صفوف القطيع، ورغم أن المسرحية ظهرت إلى النور عام ١٩٦٠، إلا أن فكرتها كما قرأت في مقال للناقد المسرحي علي كامل ظهرت لدى يونسكو قبل عشرين عاما وسط زحف الأفكار الفاشية والنازية على العالم، حيث عُثِر في دفتر مذكرات يونسكو على مقطع كتبه سنة ١٩٤٠ يقول فيه: «الشرطة خراتيت والقضاة خراتيت وأنت الإنسان الوحيد وسط كل

هذه الخراتيت. كيف يمكن أن يدار العالم من قبل البشر؟ هكذا تسأل الخراتيت نفسها. اسأل نفسك أنت: هل حقيقة أن العالم قد أدير يوما ما من قبل البشر؟».

في أحد فصول المسرحية التي نشرتها الهيئة العامة للكتاب ضمن الجزء الأول من الأعمال المسرحية الكاملة ليونسكو بترجمة للدكتور حمادة إبراهيم، يقول دودار صديق البطل رافض الخرتتة لصديقه بيرانجيه: «أنت لن تصبح خرتيتا.. هذا أمر محقق، فليس لديك الاستعداد ذلك»، ليكشف لنا أن يونسكو في مسرحيته لا يبرئ المتخرتتين من مسئوليتهم عما أصابهم، فقد كان لديهم الاستعداد منذ البداية أن يسمحوا لمشاعرهم بالتبلد كل على طريقته الخاصة في الخرتتة، فقد بدأ صديقه جان مثلا طريقه إلى الخرتتة باستنكاره الدائم لاعتقاد أن البشر أفضل من الخراتيت، ودفاعه عن حق البشر في أن يتخرتتوا إذا كان ذلك يريحهم، معلنا أنه لا يمانع أن يكون خرتيتا من باب التغيير ليتحول فعلا إلى خرتيت. أما دودار نفسه فقد بدأ طريقه إلى الخرتتة بالتوقف عن رؤية العيوب الحقيقية في كل ما حوله قائلا: «الويل لمن يرى العيب في كل مجال فهذه سمة المفتشين»، معتبرا أن استنكار بيرانجيه لتحول البشر إلى خراتيت عصبية لا تليق به، وبعد رحلة طويلة من التبرير لأخطاء المتخرتتين ومحاولة تفسير مواقفهم والتسامح مع ما يسببونه من دمار، ينتهي بدودار المطاف إلى أن ينضم إلى الخراتيت، تاركا صديقه بيرانجيه وهو يحاول التمسك بإنسانيته من خلال حبيبته ديزي التي تظهر عليها أيضا أعراض الخرتتة شيئا فشيئا، عندما تشعر بالخجل من الحب الذي تبدأ في اعتباره ضعفا بشريا وشعورا مريضا، وعندما يعرض عليها بيرانجيه أن ينجبا طفلا

لينقذا العالم بحبهما فيكونا آدم وحواء جديدين، تقول له: «قد نكون نحن الذين نحتاج إلى إنقاذ، قد نكون نحن الشاذين عن غيرنا»، قائلة له: إن من تخرتتوا قد يكونون «هم الناس، فالبهجة بادية على وجوههم ويشعرون بأنهم على ما يرام في جلودهم، لا يبدو عليهم أنهم مجانين، إنهم طبيعيون جدا، لقد كانوا على حق»، يصرخ فيها محاولا إقناعها بخطأ ما تقوله، فتصدمه بقولها: إن حياتهما معا لم تعد ممكنة، وتنسحب من حياته في هدوء لتنضم إلى الخراتيت دون حتى أن تشرح موقفها له.

يصرخ بيرانجيه من نافذته في الخراتيت التي تحيط به من كل اتجاه: «لن تنالوني، لن أتبعكم، أنا لا أفهمكم، سأظل كما أنا، أنا كائن بشري، أنا كائن بشري»، لكنه للحظات يشعر بالرعب عندما يجد نفسه وحيدا في إنسانيته، فيحاول إقناع نفسه بعد نوبة ضعف انتابته أن الخراتيت ليست قبيحة كما يتصور، ويبدأ في تمني أن يتخرتت هو أيضا مثل سابقيه، ثم يحاول أن يقلد خوار الخراتيت فيفشل فشلا يجعله يستعيد نفسه صارخا في انتفاضة غضب ينهي بها يونسكو مسرحيته: «الويل لمن أراد أن يحتفظ بتفرده، حسنا ليكن ما يكون، سأدافع عن نفسي ضد العالم أجمع، سأدافع عن نفسي، أنا آخر إنسان وسأظل كذلك حتى النهاية. لن أستسلم».

اللهمَّ وإن تخرتت البشر من حولنا وقرروا فقد إنسانيتهم، فاحفظ علينا إنسانيتنا، ولا تؤاخذنا بما فعل المتخرتتون منّا، والطف بنا فيما جرت به المقادير.

الأوغاد

لا تدع الصوت العالي يخدعك ولا تصدر أحكامك بناءً على ما يقوله الأوغاد، ولا تسلم قيادك لمن تعجبك حماسته دون أن تُعمل عقلك فيما يدعو إليه وتفكر في مصالحه وأهدافه.

ليست هذه نصائح مني أقصد بها (سين) من الناس أو (صاد) من التيارات السياسية، بل هي نصائح سبقني في توجيهها إلى الناس في كل زمان ومكان، سيد الأدب العالمي وأحد حكماء الإنسانية العظام الروائي الروسي فيدور دوستويفسكي. لم يكن دوستويفسكي مجرد حكّاء عظيم، مع أن ذلك ليس أمرا هينا على الإطلاق، بل كان مع ذلك وقبله خبيرا في تشريح النفس البشرية بشكل يجعل رواياته عابرة للأزمنة. كثير مما يجري حولك وتظنه ألغازا عصيَّة على الفهم أو ظواهر جديدة لم تشهدها البشرية من قبل ستجده في روايات دوستويفسكي، اكتشف ذلك بنفسك وأنت تقرأ أيًّا من رواياته، وكلها مترجمة إلى العربية على يد الكاتب السوري العظيم سامي الدروبي ـ رحمه الله ـ ستجد نسخا من تلك الروايات على الإنترنت

دون أن تجد حرجا في تحميلها، فقد سقطت بحكم السنين حقوق ملكيتها الفكرية، إذا كانت القراءة الإليكترونية ترهقك ستجد نسخا غالية الثمن منها في المكتبات، هناك نسخ زهيدة الثمن نشرتها الهيئة المصرية العامة للكتاب لكنها للأسف مليئة بالأخطاء المطبعية التي تجعل قراءتها عذابا مقيما، وحتى تتنبه الهيئة إلى ذلك فتعيد طباعة تلك الأعمال بذمة، أرجوك لا تحرم نفسك من قراءة دوستويفسكي لكي تحاول فهم ما يحدث حولك ولك.

في روايته المذهلة (الشياطين) يحذرك دوستويفسكي من أوغاد زمانك، وهو عندما يصف أناسا من أهل زمانه وزمانك بأنهم أوغاد لا يوجه شتيمة مجانية لطائفة من البشر لم يستطع فهمهم أو التعامل معهم، بل يحلل سلوك فئة من البشر يظهرون في الفترات العصيبة التي تمر بها الجماعات الإنسانية ليزيدوها رهقا وشقاءً، سأتركك لقراءة ما يقوله دوستويفسكي على لسان راوي روايته الذي حكاها لنا كلها دون أن نعرف تفاصيله الشخصية، فبدا كأنه يحمل رؤية دوستويفسكي نفسه لمجتمعه وقت كتابة الرواية، يقول دوستويفسكي: «سبق أن ذكرت أن أنواعا شتى من صغار الأشرار قد ظهرت في مدينتنا، إن أمثال هؤلاء ينبجسون في عهود الاضطراب، في عهود الانتقال، في كل زمان ومكان، لست أعني الأشخاص الذين تكون لهم في أكثر الأحيان غاية محددة بعض التحديد مهما تكن هذه الغاية سخيفة، لا فإنما أنا أعني الأوغاد، إن الوغد موجود في كل مجتمع ولكنه لا يظهر إلا على السطح إلا في فترات الانتقال، وهو لا يرمي إلى أي غاية، ولا يسعى إلى أي هدف، ولا يملك أيّ فكرة، كل ماهنالك أنه يعبر

عن نفاد الصبر، ويدل على اختلاط الأمور في المجتمع، ومع ذلك نرى الوغد، دون أن يدرك هو ذلك، يخضع في جميع الأحيان تقريبا لجماعة صغيرة من المتقدمين الذين لهم هدف محدد، فهم يدفعون هؤلاء الأوغاد في الاتجاه الذي يناسبهم، على شرط أن لا يكونوا إلا بلهاء تماما، وذلك هو مايحدث في بعض الأحيان على كل حال».

لكن كيف يعمل هؤلاء الأوغاد؟ هذه المرة يحكي لنا دوستويفسكي عنهم على لسان كبيرهم بطرس فرخونسكي الذي تسببت أفعاله في هلاك كل أبطال الرواية، بينما أفلت هو وحده من العقاب في نهايتها واختفى بشكل غامض ليشعل النار في جماعة بشرية أخرى، يقول الشيطان فرخونسكي: «سنبدأ بأن نثير اضطرابات... سوف نتسلل إلى أعمق أعماق الشعب، هل تعرف أننا أقوياء قوة رهيبة منذ الآن، إن الذين يعملون من أجلنا ليسوا فقط أولئك الذين يقتلون ويشعلون الحرائق ويستعملون المسدس بالطريقة الكلاسيكية وأولئك المسعورين الذين يعضون، حتى إن هؤلاء قد يكونون أميل إلى الإعاقة والعرقلة... إنني أضع الجميع في الحساب: إن معلم المدرسة الذي يستهزئ من تلاميذه بإلهائهم واحد منا، والمحامي الذي يدافع عن موكله القاتل المثقف مشيرا إلى أنه أعلى ثقافة من الذين قتلهم وأنه اضطر أن يقتل للحصول على المال هو واحد منا، وتلامذة المدرسة الذين يقتلون أحد الفلاحين نشدانا لإحساسات خارقة هم منا، والمحلفون الذين يبرِّئون جميع المجرمين بغير استثناءهم منّا، ووكيل النيابة الذي يرتعش خوفا متى خطر بباله أنه لم يظهر قدرا كافيا من الليبرالية هو منّا، ثم أضف إلى هؤلاء المثقفين والكتاب إن كثيرين

منهـم ينتمون إلينـا دون أن يخطر ذلك ببالهم، ثـم إن طواعية التلاميذ والحمقى طواعية مطلقة، أما المعلمون فإنهم ممتلئون غيظا، كل شيء فـي كل مكان ليس إلا غرورا وشـهوة حيوانية لا عهـد بمثلها من قبل، هل تتصور مدى المسـاعدة التي يمكـن أن تقدمها لنا الأفكار الجاهزة الرائجة؟».

لا تشغل بالك بتطبيق ما قرأته الآن على ما يدور حولك، فليس هذا هو المهم أبدا، المهم أن دوستويفسكي يذكرك بأن نجاح فرخونسكي وجماعته من الشياطين لم يأت من فراغ، لقد ساعدهم في ذلك الواقع المحيط بهم الذي اختلت فيه موازين الإدراك ولم يعد فيه الناس قادرين على تحديد أولوياتهم، ساعدهم أن الناس في زمانهم كانوا على حد تعبير دوستويفسكي: «يجدون في الفضائح والمشاكل لذة قصوى، على أن الواقع هو أن هناك شيئا آخر أخطر شأنا من هذا الظمأ إلى الفضائح، إنه حنق عام، إنه نوع من كره وحقد كاسر، يبدو أن جميع الناس كانوا مغتاظين، وكانوا يتوقون إلى تغيير ما، أيـًا كان هذا التغيير، ولذلك كان يرين عليهم استخفاف غريب، واستهتار مقصود».

من هم أوغاد أيامنا؟ وهل هناك من بينهم من يدرك خطورة ما يفعله أو يفكر فيه؟ وهل بينهم نبلاء مخدوعون يتصرفون مدفوعين بغريزة الغضب التي تعميهم عن تبصر عواقب أفعالهم، ويظنون أنهم يحاربون الاستبداد لكنهم يرسمون له طريق البقاء الأبدي من حيث لا يدرون؟ كيف أستطيع أن أميز بين من يرفع شعارات ثورية حماسية رائعة لكنه يحمل نوايا تسلطية استبدادية مقيتة؟ وكيف نصل إلى بر النجاة دون أن نستجير من الرمضاء بالنار؟

إن الله عز وجل يحذرنا في كتابه الكريم من أناس يشبهون تماما أولئك الأوغاد، فيقول جل وعلا: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾، وهو تحذير يمكن أن ينطبق على كثيرين من حولنا بما فيهم من تقرأ له الآن، ولذلك تبقى الحيرة: كيف نختار طريقا لا يهلك الحرث والنسل ولا يفسد في الأرض؟ كيف نتخذ قراراتنا الحاسمة في أيام ملتبسة كهذه؟ الواقع أنك لن تجد هذه الأسئلة لدى دوستويفسكي ولن تجدها لديّ أنا أيضا، فأنت وحدك المطالب بأن تجيب عليها بنفسك، لكي لا تكتشف يوما ما أنك وقعت فريسة لخداع الأوغاد.

كابوس مكيف الهواء!

«لدينا الآن حالة تسمى حالة طوارئ وطنية، وبرغم أن رجال السياسة والنفوذ مسموح لهم بأن يتبجحوا على هواهم، وبرغم أن جماعة الصحافة مسموح لها بأن تهذي وتنشر الهستيريا، وبرغم أن جماعة الجيش تهدد وتتوعد وتُشدد على كل ما ليس على هواها، فإن من المفترض بالمواطن الفرد الذي تُشنّ الحرب من أجله وبمساعدته أن يُمسك لسانه، وبما أني لا أكن أدنى قدر من الاحترام لإخراس الألسنة، لأنه لا يساعد على التقدم أبدا، واصلت تصريحاتي لتثير الانزعاج والغضب، لأنني أومن مع جون ستيوارت ميل أن «الأمة التي تُقَزِّم رجالها، لكي يصبحوا أدوات طيعة أكثر في يديها حتى من أجل أهداف مفيدة، سوف تجد أنه لا يمكن إنجاز شيء عظيم برجال صغار»».

هكذا صرخ الكاتب الأمريكي الشهير هنري ميللر في مقدمة كتابه (كابوس مُكيّف الهواء) معلنا رفضه لحالة الإرهاب الفكري التي سادت بلاده طيلة السنين التي سبقت الحرب العالمية الثانية، والتي

كانت تسعى لإخراس كل صوت مختلف يدعو إلى السلام، لكنه مع إصراره على أن يقول رأيه بشجاعة، كان شديد الواقعية وهو يجهر بإدراكه أن رأيه سيكون أضعف من صوت الشعارات الطنانة التي تحتكر الحديث باسم الوطن وتدعي أنها وحدها الأدرى بمصلحته، لذلك كتب بمنتهى الواقعية «لكي يعرف الإنسان السلام يجب أن يجرب الصراع، عليه أن يمر بالمرحلة البطولية قبل أن يتمكن من التصرف كحكيم، يجب أن يصبح ضحية انفعالاته قبل أن يتمكن من التعالي عليها».

بالطبع لم يكن ميللر يشك أبدا في خطورة النازية والفاشية، لكنه كان يمتلك رؤية مختلفة لطريقة القضاء عليهما إلى الأبد، لم يُقَدِّر الكثيرون رأيه وقتها بل تعرض بسببه للتخوين واللعنات، لكن الأيام أثبتت صحة رأيه بعد مرور عشرات السنين عندما عادت النازية الجديدة والفاشية الجديدة لتكون خطرا مقلقا سريع التصاعد، لكن قبل أن يحدث ذلك بكثير قال ميللر وهو يُمَنِّي نفسه بأن تتعلم بلاده شيئا ما من الكابوس الذي تشهده: «الذين يعتقدون أن الوسيلة الوحيدة للقضاء على من يُجسدون الشر هو تدميرهم، فليُدَمِّروا، دَمِّر كل ما يقع عليه بصرك، إذا كنت تؤمن بهذا النوع من التدمير، فأنا لا أومن إلا بالتدمير الطبيعي، الطارئ على الخلق والمتأصل فيه... بعضهم يعتقدون أن إعلان الحرب يغير كل شيء، ليت هذا صحيح، ليتنا نستطيع أن نصبو إلى تغيير جذري، كاسح، كامل وشامل، لكن التغييرات التي تجلبها الحرب لا شيء مقارنة باكتشافات أديسون واختراعاته، ومع ذلك يمكن للحرب أن تحدث تغييرات خيِّرة أو

شريرة في روح شعب ما، وهذا ما أنا مهتم به بصورة حيوية: تغيير القلب وهدايته».

في كتابه البديع الذي ترجمه إلى العربية أسامة منزلجي ونشرته دار المدى، يقرر هنري ميللر أن يقاوم شبكة المصالح الحاكمة التي تريد إخراس كل صوت لا يروق لها بطريقة مبتكرة هي أن يبدأ رحلة يستكشف بها بلاده من أقصاها إلى أقصاها، ليس يأسا من مواجهة الواقع ولا هروبا من معاركه، بل إدراكا أن شعبه سيكتشف حتما أن مشاكله المعقدة لن تحلها الشعارات الحنجورية: «إذا احتاج الأمر حدوث كارثة كالحرب لإيقاظنا، فليكن. دعونا نرى الآن إن كان العاطلون عن العمل سيجدون عملا، والفقراء سيُكسَون جيدا ويُطعمون ويُؤوون، دعونا نرى إن كان الأغنياء سيُجرّدون من غنائمهم لكي يعانوا حرمان المواطن العادي وآلامه، دعونا نرى إن كان عمال أميركا كلهم على اختلاف طبقاتهم ومقدرتهم وفائدتهم يمكن إقناعهم بقبول أجر موحد، دعونا نرى إن كان الناس سيتمكنون من الجهر برغباتهم بشكل مباشر، من دون توسط وتحريف، ومن دون التصرف الأخرق للسياسيين، دعونا نرى إن كنا نستطيع أن نوجد ديمقراطية حقيقية لتحل محل تلك الزائفة التي استنهضنا لندافع عنها، دعونا نرى إن كنا سنستطيع أن نكون عادلين ومنصفين مع أقراننا، ناهيك عن العدو الذي سنقهر بلا أدنى شك».

وفي حين اختار مثقفون كثيرون أيامها أن يجاروا التعبير الكاذب عن الوطنية بشكل مبتذل يجلب لهم التصفيق، امتلك هنري ميللر

الشجاعة لأن يعلن رفضه لمظاهر الوطنية الشكلية التي تجتاح البلاد، ساخرا مثلا من هوس اجتياح العلم الأمريكي لشوارع نيويورك: «لقد أضحى العلم عباءة يختفي تحتها الظلم، إن لدينا دائما علمين أمريكيين: واحد للأغنياء وواحد للفقراء، عندما ينشره الأغنياء فهذا يعني أن كل شيء تحت السيطرة، وعندما ينشره الفقراء فإنه يعني الخطر والثورة والفوضى». كما أعلن رفضه أن يوقع على بياض صكوك الولاء لأجهزة القمع التي تتصور أن دخول المجتمع في حالة حرب يمنحها الحق أن تفعل ما تشاء دون رقيب رافض ممارساتها، حتى وإن كانت ترتكب بحق السجناء المدانين «إذا كان لا بد أن تحمي المجتمع تلك الوحوش اللا إنسانية فليذهب المجتمع إلى الجحيم، وإذا كان القانون والنظام لا يعتمدان إلا على رجل مسلح حتى أسنانه، رجل بلا قلب، بلا ضمير، فلا معنى للقانون والنظام»، كما حرص على أن ينبه إلى خطورة استغلال الرعب والخوف في تجييش الشعب دون أن يتم ذلك بعد جهد حقيقي لبناء الذات وتطويرها، لأن شعوب الدنيا لن تصدق رغبتنا في قتل هتلر وموسوليني إلا «عندما ننظف أنفسنا أولا ونقتل هتلرياتنا وموسولينياتنا التي تسكننا، وأن العالم الجديد الذي نبشر به لن تتم صناعته ببساطة عندما ننسى العالم القديم، فالعالم الجديد لن يُصنع إلا بروح جديدة وقيم جديدة».

لم تُغَيِّر كلمات هنري ميللر الواقع وقتها، لكنها لم تذهب أدراج الرياح إلى الأبد، بل بقيت حاضرة إلى أن سكنت وجدان أجيال تالية اكتشفت بالتجربة أن العالم الجديد الذي شاركت في صنعه أمريكا بعد الحرب لم يكن سوى أكذوبة كبيرة، فقد نشأ على نفس

القيم القديمة وبنفس الروح القديمة الفاسدة، ولذلك أخذت أمريكا تناقض كل المبادئ التي ادعت أنها تناصرها، ولذلك استمر البسطاء يدفعون وحدهم دائما ثمن الحروب غامضة النوايا التي يلجأ أصحاب المصالح إلى تسويقها بشعارات الوطنية البراقة، ليحققوا أحلامهم في المزيد من النفوذ والسلطة، ويبقى الفقراء وحدهم يعيشون في كابوسهم الذي حتى وإن جعله الحكام مكيف الهواء مسكونا بالأحلام ومتخما بالأغاني الوطنية، فإنه سيظل في حقيقة الأمر كابوسا يجب التخلص منه.

من ألم الفراق

وقفت في حضرة الشيخ عبد الله البلخي باكيًا وقلت : يا شيخي أخشى على نفسي مصير شهريار، فقال بهدوء العارفين: يابنيّ شهريار هارب من ماضيه فممّ أنت هارب؟ قلت: أنا هارب من ماضيّ ومن مستقبلي.. أبحث عن الحق وأخشى أن أجده، فلا طاقة لى بتبعات معرفته، فقال مستعيرا مقولة عبد الله العاقل: «من غيرة الحق أن لم يجعل لأحد إليه طريقا، ولم يُيئِس أحدا من الوصول إليه، وترك الخلق في مفاوز التحيّر يركضون، وفي بحار الظن يغرقون، فمن ظن أنه واصل فاصله، ومن ظن أنه فاصل تاه، فلا وصول، ولا مهرب عنه، ولا بد منه».

أنت الآن في حضرة (ليالي ألف ليلة)، أجمل وأعذب ماكتبه أبو الكتابة نجيب محفوظ، وكل ماكتبه جميل وعذب دون أدنى مبالغة، أنت في حضرة الكنز المحفوظي الذي لم يُكتشف بعد، هنا ستنهل ولن ترتوي من نهر الحكمة المحفوظية العابث وهو يجسد غموض مصير الإنسان الذي تدفعه أخطاء تافهة إلى التغير من أحسن حال إلى

شر حال، ليبدو كأنه يؤدي دورا عبثيا لا علاقة له برسمه، هنا سيضعك محفوظ وجها لوجه أمام واقعك الذي لا تبدله آلاف الليالي، حيث الحاكم الذي «يأتي بإرادة لا علاقة لها بإرادة الناس ويرحل بنفس الإرادة، ويبدأ حكمه باعثا على الأمل وينهيه مشيعا باللعنات».

في أبدع لوحات روايته (البكاءون) يجرد محفوظ شهريار من جبروت الحاكم ليقدمه إنسانا موزعًا بين الخوف والرجاء وهاربا من قصره بعد أن تناسى شعبه آثامه، يرى في الخلاء صخرة كالقبة يدور حولها رجال يضربونها بقبضاتهم وهم لا يكفون عن البكاء، يقترب الفجر فيتنادون للعودة إلى دار العذاب، يضرب هو بقبضته على الصخرة فينفتح له باب ينبعث منه نور عذب ورائحة زكية مخدرة، يدخل مشفقا من أن يكون طريقه بلا نهاية، لكن المشي العقيم يطيب له، ولما أوشك أن ينسى لمشيه غاية يجد بركة صافية وصوتًا يدعوه: افعل ما بدا لك، يخرج من البركة في إهاب فتى مليح قوي، فتخبره صبية ملائكية أنه العريس الموعود لملكة عظيمة تضيء مدينة كأنها الفردوس، يتزوج ويمضي أيامه في حب وتأمل وعبادة وغناء، في قصر خلاب يحتاج ألف عام لاكتشاف خباياه، لكنه ينشغل عن كل هذا بباب حرمت عليه زوجته فتحه قائلة: «ستعرف السعادة الحقيقية عندما تنسى الماضي تماما»، لكنه يستسلم لنداء خفي ويفتح الباب فيداهمه مارد قبيح يعيده إلى حيث الصحراء والليل والصخرة والرجال والنحيب المتواصل، فيصرخ طالبا الرحمة ويهوي بقبضته على الصخرة هاتفا: «جميع الكائنات تبكي من ألم الفراق».

مع نجيب محفوظ ستبكي على حال أمة كالقطيع يتناوب عليها الحكام دون أن يتغير حالها، بينما أهلها لا يملكون سوى مرارة الرثاء: «استشهد الشرفاء الأنقياء.. أسفي عليك يا مدينتي التي لا يتسلط عليك اليوم إلا المنافقون، لمَ يا مولاي لا يبقى في المزاود إلا شر البقر؟» أو يستجيرون آملين «ماذا يجري علينا لو تولى أمورنا حاكم عادل؟» أو يندبون حظهم «ويل الناس من حاكم لا حياء له» أو يكتفون بتشخيص الحال دون سعي للثورة عليه «فساد العلماء من الغفلة وفساد الأمراء من الظلمة وفساد الفقراء من النفاق».

في «ليالي ألف ليلة» ستجد نفسك دون شك، ربما وجدتها مع شهريار الذي لم يُنسِهِ الترف أنه «كلما جاء الليل تبين لي أني رجل فقير»، وربما وجدتها في نصيحة الشيخ العابد «نحن نُكابد أشواقا لا حصر لها لتقودنا في النهاية إلى الشوق الذي لا شوق بعده فاعشق الله يغنك عن كل شيء»، وربما تمردت عليها مثل نور الدين «إني مؤمن صادق العبادة ولكنني ما زلت عاشقا لمخلوقات الله»، ربما دعاك أحد ذات مرة إلى الشراب فقلت له: «رأسي مليء بالدنان»، وربما هتفتَ مع قوت القلوب وصوتها يمزق القلوب: «من عادة الدهر إدبار وإقبال.. فما يدوم له بين الورى حال»، وربما اجتاحك صوت الشيخ البلخي وهو يهتف بك: «طوبى لمن كان همه هما واحدا، ولم يشغل قلبه بما رأت عيناه وسمعت أذناه، ومن عرف الله فإنه يزهد في كل شيء يشغله عنه»، مع كل هذا وبعده ستشفق على الجهلاء الذين رموا نجيب محفوظ بالكفر، لأنك ستجد نفسك وقد وصلت معه في آن إلى قمة الإيمان وقمة الحيرة، لا تسألني كيف؟ ستصل

بنفسك، وعندما تظن أنك وصلت وعرفت، سيأتيك صوت شهريار هادرًا «الوجود أغمض ما في الوجود»، ثم إنك ـ صدقني ـ لو لم تخرج من (ليالي ألف ليلة) سوى بنصيحة صنعان الجمالي لإبراهيم العطار لكفاك: «لا تأمن لهذه الدنيا يا إبراهيم».

لماذا لا يموت أولاد المتسخة؟

يحدث أحيانا أن يظلم الكاتب بنفسه عملا له أكثر مما يظلمه قراؤه ونقاده، أظن أن سيد أدباء الإنسانية الكاتب الروسي العظيم دوستويفسكي فعل ذلك عندما أخذ موقفا سلبيا من روايته الجميلة (مذلون مهانون)، حين كتب مقالا في مجلة (العصر) عام ١٨٦٤ بعد نشر الرواية في طبعة مستقلة يعتذر فيه للقراء عن تسرعه في نشر الرواية على حلقات قبل ثلاث سنوات، معترفا أنه كتبها في ظروف خاصة فرضت عليه أن يسرع في الكتابة، لأن مجلة (الزمان) الأدبية التي أنشأها أخوه كانت في حاجة إلى رواية مسلسلة لتنشرها، فقرر أن يعطيها الرواية دون أن يتسع وقته لبناء روايته بشكل محكم.

في المقدمة التي كتبها المترجم السوري العظيم سامي الدروبي لهذه الرواية يرى أن دوستويفسكي ظلم نفسه وروايته عندما كتب ذلك، مثنيا بشدة على الرواية التي «تعتبر جسرا بين ما أنتجه من قصص في أيام الشباب، وبين الأعمال الكبيرة التي كتبها في سن النضج، وربما حدث ذلك لأن النقاد استقبلوها بتفاوت شديد، فمنهم

من تحمس لها أكبر الحماسة ومنهم من ظلمها أكبر الظلم»، حب سامي الدروبي للرواية ورغبته في أن يقرأها القارئ دون تأثر بحكم مؤلفها نفسه عليها، جعله يؤكد في مقدمته أن الرواية ليست مفككة إلا في نظر من يقرؤها قراءة عَجلَى، فيتيه في سراديبها دون أن يلاحظ ارتباط أجزائها ببعض ارتباطا وثيقا، مشيرا إلى ما كتبه دوستويفسكي عن روايته بعد صدورها بثلاث سنوات حين قال: «ولكن إليكم ما كنت أعرفه حين شرعت في كتابتها: إن روايتي هذه ستشتمل على شعر ولو لم تنجح، وأنها ستشتمل على فصول تفيض حرارة وقوة، وأنها ستشتمل على وصف صادق وفني لشخصيتين حيتين إلى أبعد الحدود، وكانت هذه الثقة تكفيني، وقد خرجت الرواية غريبة بعض الغرابة، غير أن فيها قرابة خمسين صفحة أعتز بها».

جعلتني مقدمة الدروبي أفكر طيلة قراءتي للرواية سائلا نفسي: يا ترى ما هي الخمسين صفحة التي يفخر بها دوستويفسكي دون غيرها من صفحات هذه الرواية؟ لكنني مع توغلي في الرواية وتنامي إعجابي بها، سألت نفسي: هل كانت لعبة ذكية من «دو» كما يحب الدروبي أن يسميه، لكي يدفع القارئ للانهماك والتركيز في روايته التي يحتفظ بذكريات سيئة عن ظروف نشرها وكتابتها، إذا كان الأمر كذلك فأظنه قد نجح نجاحا ساحقا في مسعاه، لكنه ربما لو كان لم يفعل، لما قل استمتاعي بالرواية على الإطلاق، لأنني بعد إكمال قراءتها وجدت نفسي متفقا مع رأي سامي الدروبي في أن دوستويفسكي ظلم نفسه وروايته ظلما بينا، لأنها رواية شديدة الجمال والعذوبة تدفعك كشأن كل ما كتبه دوستويفسكي إلى رؤية البشر من خلال منظاره الثاقب

الفاتن، فلا تعود لرؤيتهم بنفس الطريقة التي كنت تراهم بها من قبل أن تقرأ له.

إذا كنت قد قرأت الرواية أظنك ستتفق معي ومع سامي الدروبي أيضا في أن الخمسين صفحة التي يفخر بها دوستويفسكي في روايته، لا بد أن تكون تلك الصفحات التي تضمنت حوارا طويلا بين بطل الرواية الكاتب إيفان بتروفيتش أو فانيا، وبين الأمير فالكوفسكي الذي تقدمه لنا الرواية بوصفه الوغد اللئيم الذي لا يتورع عن شيء ولا يحجم عن شر، وهو حوار يدور داخل مطعم بعد أن سَكِر الأمير فانطلق لسانه لكي يحدث فانيا عن دخائل نفسه، مقدما تشريحا رهيبا لنفسيات تلك الفئة من البشر التي تمتلك المال والنفوذ وتتلاعب بالذين لا يملكون المال والنفوذ، وهو تشريح عندما تقرأه ستدرك أن تلك الفئة من البشر ستظل على ما يبدو قائمة حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وأن تحجيم خطرها على المجتمعات البشرية يتطلب وعيا بألاعيبها وحيلها وقدرتها المستمرة على تغيير جلدها من أجل أن تبقى مسيطرة وقوية في كل العصور، وربما تجد فيه إجابة على ذلك السؤال الشعبي الشهير الذي تحول إلى «جرافيتي» شهير على حيطان بلادنا، أعني سؤال «لماذا لا يموت أولاد المتسخة؟»، مشيها أولاد المتسخة، ما يجراش حاجة.

يبدأ الأمير البوح لبطل الرواية معترفا أنه يشعر بلذة عظيمة لأنه يخلع قناعه فجأة الآن ويسفر عن وجهه الحقيقي لشخص آخر دون حياء، لكنه يضيف قائلا بسخرية أنه لحسن الحظ أن ذلك لا يحدث

على الدوام من كل الناس، لكي يتمكن المجتمع من تحقيق الراحة والرخاء «سأقول لك شيئا، لو أمكن أن يتوصل كل منا، وهذا مستحيل بحكم الطبيعة الإنسانية إلى الكشف عن جميع أفكاره دون أن يخشى أن يظهر الناس لا على مالا يجرؤ أن يقوله، وما لا يمكن أن يقوله لأحد، فحسب، ولا على ما لايجرؤ أن يقوله لأعز أصدقائه فحسب، بل أيضا على ما يخشى أن يعترف به أحيانا لنفسه، لخرجت من الأرض عفونة تبلغ من النتانة أنها تخنقنا جميعا».

بعدها يبدأ الأمير في شرح تصوره للكون الذي يبني عليه جميع تعاملاته مع الناس من حوله فيقول: «ما حيلتي وأنا مقتنع بأن الأنانية العميقة هي أساس جميع الفضائل الإنسانية، وأن فضيلة عمل من الأعمال هي على قدر ماينطوي عليه من أنانية، أَحِبّ نفسك أيها الإنسان، تلك هي القاعدة الوحيدة التي أعترف بها، إن الحياة سوقٌ فلا تُهدر مالك، ولكن ادفع ثمن لذتك إن شئت، وبذلك تُحَقِّق واجبك كله تجاه أخيك الإنسان، هذه هي أخلاقي إذا كنت تحرص على معرفتها، رغم أنني أعترف لك بأن الأفضل في رأيي ألا تدفع شيئا البتة، وأن تعرف كيف تحمل الناس على أن يعملوا لك ماتريد بلا ثمن، ليس لي مثل أعلى ولا أريد أن يكون لي مثل أعلى، إنني لم أشعر يوما بالحنين إلى مثل أعلى، إن المرء ليستطيع أن يعيش حياة فرحة ممتعة بدون مثل أعلى... إن الحياة لا تزال تشتمل على أشياء جميلة، إنني أحب الاعتبار، الجاه، والفنادق الخاصة، والمقامرة الضخمة، إنني أعبد ورق اللعب عبادة، وأحب النساء خاصة، أحب النساء بشتى جوانبهن، أحب حتى الفجور المظلم، المختفي، الغريب، الشاذ، بل

والقذر بعض القذارة، من قبيل التغيير، هأ هأ هأ، إنني أقرأ في وجهك ماتشعر به نحوي من احتقار شديد. ياصديقي إذا كنت حقا تريد الخير للبشر فيجب أن تتمنى لجميع الأذكياء أن تكون أذواقهم كذوقي، رغم أن ذوقي قذر بعض القذارة، وإلا لم يبق لهم ما يعملونه في هذا العالم، فلا يبقى ثمة إلا الأغبياء الحمقى، إنهم بذلك يصبحون سعداء، هل تعلم، مامن شيء أمتع للإنسان من أن يعيش في صحبة حمقى، ومن أن يعزف على أوتارهم، إنه يستفيد من ذلك».

ثم يواصل عرض فلسفته قائلا: «لا تأخذ عليّ أنني أقيم وزنا لآراء المجتمع، وأنني أحرص على بعض المواضعات، وأنني أنشد الاعتبار والجاه، أنا أعرف أنني أعيش في مجتمع تافه، ولكنني حتى الآن أتحمس له، وأنعق مع الناعقين، إنني أتظاهر بالدفاع عنه دفاعا حارا، ومع ذلك فمن الممكن إذا اقتضى الأمر أن أهجره أول من يهجره، إنني أعرف جميع أفكارهم الجديدة، رغم أنني لم أحفل بها يوما، وعلام أحفل بها، إنني لم أشعر يوما بعذاب الضمير، إنني أقبل كل شيء، متى كان لي فيه نفع، وأضرابي كثير، ونحن جميعا في أحسن حالٍ حقا، يمكن أن يفنى كل شيء على الأرض، وأن نظل نحن وحدنا لا نفنى أبدا، إننا نوجد منذ وجد الوجود، قد يغرق الكون كله، ونبقى نحن نطفو على وجه الماء، نطفو إلى الأبد، انظر بهذه المناسبة، كم تطول حياة أمثالنا، إننا نعمِّر كثيرا، ألم يلفت نظرك ذلك؟ إننا نعيش حتى الثمانين، حتى التسعين، فالطبيعة نفسها تحمينا إذا، هه هه، أريد أن أبلغ التسعين حتما، أنا لا أحب الموت، سحقا للفلسفة، فلنشرب يا عزيزي».

في موضع آخر من الرواية يقدم دوستويفسكي ملمحا آخر شديد الأهمية نقرأ من خلاله الطريقة التي تفكر بها تلك الفئة المستغلة المتسخة التي تتمكن من البقاء دائما في كل العصور، من خلال سؤال تطرحه بطلة الرواية على أحد الدبلوماسيين من رجال السلطة، حيث تقول له: «هل يجب أن نخشى الإصلاحات السياسية التي شرعت الدولة في تنفيذها؟»، فيجيبها بكلمات شديدة الخطورة أظنك ستجد صدى لها في الواقع الذي نعيشه الآن في بلادنا، حيث يقول: «إن روح الإصلاح سرعان ما ستسفر عن بعض النتائج، والناس سيعودون إلى صوابهم حين يرون تلك النتائج، لكن روح الإصلاح هذه ستختفي من المجتمع (أعني من قسم من المجتمع طبعا) وسيدرك الناس عند التطبيق أنهم اقترفوا خطأً، ولذلك سيعودون إلى النظام القديم بمزيد من القوة... إن تجربة هذه الإصلاحات ستكون مفيدة على كل حال، رغم أنها محزنة، ذلك لأنها ستبين أن المحافظة على الوضع القديم واجبة، ولأنها ستأتي بمعلومات جديدة، ولذلك يجب أن يتمنى المرء منذ الآن أن يمضوا بها إلى آخر حدود الطيش.. إنهم لا يستطيعون بدوننا أن يفعلوا شيئا، وما من مجتمع أمكن أن يبقى بدوننا، لن نخسر إذا شيئا، بل سنربح كثيرا، سننجو، سننجو، ويجب أن يكون شعارنا في هذه اللحظة: الأفضل أن تسوء الحال».

كل ما أتمناه الآن أن تجد هذه السطور التي اقتطعتها من رواية دوستويفسكي الجميلة صدى لديك، فلا تدفعك فقط لقراءتها بل وتجعلك تتأمل طويلا في الواقع المرير الذي نعيشه الآن في بلادنا،

فلا تنخدع بمظاهر الوطنية التي تظهر فجأة على أولئك الأوغاد الذين يدعون أن قلوبهم مع الثورة، لكن سيوفهم جاهزة لذبحها، لأنهم يفضلون دائما أن تسوء الحال لكي ينجوا من عواقب التغيير والإصلاح، ويبقى فقراء البلاد دائما كما هم، «مُذلين ومُهانين».

أفيونة معاداة الفاشية!

أحيانا تظلم الروايات العظيمة كاتبها، فتحجب عن الناس عظمة أعمال أخرى كتبها لم يكن لها نفس الحظ من الذيوع والانتشار، حدث ذلك مع كُتّاب كثيرين على رأسهم أحد كُتّابي المفضلين، البريطاني العظيم جورج أورويل الذي لم تشتهر له بين الناس في بلادنا وفي غير بلادنا إلا روايتان فقط هما: (١٩٨٤) و(مزرعة الحيوانات)، وهما عملان أدبيان كبيران ورائعان بدون شك، وقد حققتا عن جدارة مبيعات لم يحققها كتاب آخر في العالم في القرن العشرين طبقا لإحصائيات دولية، لكنهما كانتا سببا في ظلم الكثير من أعمال أورويل المتميزة مثل (متشردا في باريس ولندن) و(الطريق إلى رصيف ويغان) و(أيام بورمية)، وأخيرا روايته (الصعود إلى الهواء) التي قرأتها بترجمة أسعد الحسين والتي تحضرني كثيرا في هذه الأيام الخنيقة التي تعلو فيها في وسائل الإعلام ومواقع التواصل الاجتماعي أصوات تدافع عن الدولة المدنية؛ لكنها تثير لديك نفس مشاعر الأسى والحسرة التي يثيرها بداخلك المتطرفون الإسلاميون. بالطبع

لا يمكن لعاقل أن ينكر خطورة الفاشية الدينية على مستقبل مصر، لكن هذا العاقل أيضا ينبغي أن يدرك أننا لن ننتصر عليها بأن نتحول إلى فاشيين على الجهة المقابلة نردد كلاما شديد التعصب والغوغائية ونطلق أحكاما شديدة العنصرية ونبارك أو حتى نصمت على أفعال حقيرة يرتكبها بعض معارضي الإخوان كالاعتداء على منتقبة في الشارع أو الاعتداء على ملتحين عُزّل باسم الثورية بعد اختيارهم بناءً على شكلهم من داخل سياراتهم، وهو نفس ما فعله المتطرفون الإسلاميون أيام ماسبيرو عندما اعتدوا على مواطنين مسيحيين باسم الدفاع عن الدين.

«كيف تحارب الوحوش بدون أن تتحول إلى وحش؟»، كان هذا السؤال الذي طرحه من قبل الفيلسوف العظيم نيتشه، وقد عانى جورج أورويل وهو يحاول العثور على إجابة له خلال فترة صعود الأفكار الفاشية والنازية، لتكون أكبر خطر يهدد أوروبا في فترة ما بين الحربين العالميتين، نراه يحكي لنا على لسان بطل روايته (الصعود إلى الهواء): كيف أخذته زوجته ذات يوم إلى نادي الكتّاب اليساري الذي يقع في قريتهم الصغيرة لحضور محاضرة بعنوان (خطر الفاشية) سيلقيها قيادي يساري قادم من لندن خصيصا للحديث عن ذلك الموضوع الذي كان حديث الناس وقتها، في ظل مخاوفهم المتصاعدة من صعود هتلر وموسوليني واقتراب الحرب العالمية الثانية، وبعد أن استمع البطل إلى المحاضر أخذ يصفه لنا قائلا: «كان صوته يصلني على شكل غير مفهوم، وكانت تأسرني من حين لآخر عبارات مثل الوحشية والبهيمية والنوبات الشنيعة من السادية والعودة إلى عصور

الظلام... استمتعت برؤية هذا الرجل التافه ذي الوجه الأبيض والرأس الأصلع وهو واقف على المنبر يطلق الشعارات. ماذا يفعل؟ إنه يثير الكراهية عامدا وبشكل صارخ، وبصراحة مطلقة باذلا أقصى جهده لجعلك تكره الذين ينعتهم بالفاشيين، غريب جدا منطق هذا السيد المشهور، لقد أصبحت معاداة الفاشية صنعة ومهنة غريبة، فماذا كان يعمل قبل مجيء هتلر؟ وماذا سيفعل إن اختفى هتلر؟ وخطرت ببالي فكرة أخرى: إنه يعني ما يقوله ولا يزيف أي كلمة يقولها، فهو يحاول أن يثير كُره المستمعين الذي لا يقارن بالكره الذي يضمره هو، وكل شعار أطلقه كان حقيقة مقدسة عنده، ولو نظرت في داخله لوجدت ديمقراطية فاشية. ممتع معرفة ما يفعله هذا الرجل ومن هم على شاكلته في حياتهم الخاصة، وتساءلت: إن كانت له واحدة أم أنه يتجول من منبر إلى آخر مطلقا شعاراته ومثيرا للكراهية؟».

بذمتك ألم تجد نفسك وقد ثارت هذه الأسئلة بداخلك وأنت تراقب أداء بعض الذين تحولت لديهم معاداة التطرف الديني إلى أفيونة لا يجدون ولا يجيدون غيرها، إذن، انتظر حتى تستمع إلى بقية توصيف بطل جورج أورويل الذي ينتمي إلى عامة البشر الذين لا يتقيدون بانتماء فكري أو سياسي معين، وهو يحاول تفسير أداء هذا الرجل الذي يعادي الفاشية بكل هذه العصبية فيقول: «توقفت عن سماع كلمات المحاضر الذي يمكنه الاستمرار في الكلام لمدة شهر دون توقف. شيء فظيع. كأنه أورج بشري يطلق نفس الدعايات عليك على مدار الساعة المرة تلو الأخرى مكررا الكره الكره الكره. لنكره أكثر وأكثر حتى تشعر أن شيئا ما دخل إلى جمجمتك وهو

يطرق على دماغك بقوة. غمضت عينيّ للحظة وقلبت الطاولة عليه فدخلت إلى جمجمته لمدة ثانية، رأيته يتخيل نفسه وهو يُحَطِّم وجوه الناس بمفاتيح الربط طبعا وجوه الفاشيين، هذا مارأيته في دماغه ومشيه ونومه، لكن ما هو سبب ذلك وما هو التفسير، إنه الخوف الذي يملأ قلب كل شخص عاقل والذي يرى أبعد مما يراه الآخرون، لهذا هو خائف أكثر منهم، هتلر يطاردنا، أسرعوا أمسكوا بمفاتيح الربط ولنتحد كلنا، هَشِّموا وجوها أكثر لتحافظوا على وجوهكم من التهشم وتعصبوا وتحزبوا واختاروا قادتكم، حطموا الأخرين قبل أن يحطموكم. إنهم مرعوبون جدا من المستقبل الذي سنقفز إلى جوفه مثل أرنب يسقط في فم ثعبان ضخم. لكن ماذا سيحدث لرجال مثلي إن كانت هناك فاشية في إنكلترا؟ في الواقع لن يكون هنالك أي اختلاف لكنها ستشكل فرقا كبيرا بالنسبة للمحاضر والشيوعيين الأربعة المستمعين، فهم إما أن يحطموا وجوه الآخرين أو تتحطم وجوههم ويعتمد ذلك على من سيربح، أما الرجال العاديون من أمثالي فسيستمرون كالمعتاد».

لم تكن «هيلدا» زوجة بطل رواية جورج أورويل تشاركه رأيه في الاستهانة بعصبية الرجل الذي يتحدث عن خطر الفاشية وتوتره الشديد، فقد كان أكثر ما يصدمها في زوجها هو هدوؤه، فهي على حد وصفه «يسيطر عليها الإحساس بوجوب إثارة القلق وخلق جو من البؤس بسبب الشعور بالواجب، فهي تنتمي إلى الطبقة الوسطى المتعفنة. إنها هيلدا التي تنجح دائما في قول شيء يثير الكآبة حالما تطأ قدمك عتبة البيت. إنها تفعل أي شيء بطريقة سلبية، فإن صنعت

كعكة لا تفكر بالكعكة، بل بكيفية توفير الزبد والبيض، وعندما نكون في السرير معا، كل ما تفكر فيه هو الخوف من إنجاب طفل....إنها من الأشخاص الذين تكمن موهبتهم ومتعتهم الأساسية في الحياة باستباق وقوع المصائب الصغيرة فقط؛ لأنها لا تهتم بالكبيرة منها كالحروب والمجاعات والزلازل والأوبئة والثورات، فكل ما يهمها هو أسعار الزبدة المرتفعة وفواتير الغاز الضخمة وأحذية الأولاد البالية وما تبقى من أقساط... هذا الخوف راسخ في عقلها، الشيء المضحك في الأمر هو أنه حتى لو حدث ذلك، فإن قلق هيلدا لن يساوي ربع قلقي،لا بل قد تشعر أنها في أمان أكبر هناك».

يتحدث بطل الرواية دائما عن نفسه بنبرة ساخرة لكنها تخلو من المرارة، بل يسودها تصالح شديد مع كل ما هو عليه، فهو متصالح مع زوجته التي لم يكن يفهمها قبل زواجه بها، لكنه تزوجها لكي يكتشفها، وكان يستمتع بالتفكير في قتلها خلال السنين الأولى من زواجه، لكنه اعتادها مع مرور الزمن عندما أصبح بدينا وقرر الاستقرار ليستبدل التفكير بقتلها بالتعجب منها. متصالح مع اختياره أن يكون ليبراليا ليس لأسباب فكرية خاصة بل «لأن الكل كان كذلك بعد أن طرد الناس المرشحين المحافظين ورموهم في بركة ممتلئة بالطحالب، لقد تناول الناس السياسة بشكل جدي في تلك الأيام وأخذوا يخزنون البيض الفاسد قبل الانتخابات بأسابيع»، متصالح مع توقعه لأي مصيبة قادمة «إن لم تقتلك الحرب فإنها ستجعلك تفكر»، متصالح مع كراهيته للتعليم «المدرسة هي المكان الذي تود الابتعاد عنه دائما»، مع أمه التي يستغرب كيف أنها صعقت عندما عرفت بأحوال النساء

في الشرق، حيث ينتشر تعدد الزوجات والحريم السري وحبس النساء، مع أنها عاشت طيلة عمرها في مكان خاص منعزل مثل أي «حُرمة شرقية»، متصالح مع تفضيله صيد السمك على القراءة «أنا لا أصنف نفسي من المثقفين لكن لو سألتني عن كتاب جيد لأجبتك الكتاب الجيد هو الذي لا يملك الشخص الوقت لقراءته»، متصالح حتى مع بدانته «أنا سمين من الخارج لكني نحيف من الداخل، وهل خطر ببالكم يوما أن داخل كل رجل بدين رجل نحيف؟ كالقول بوجود تمثال داخل كل صخرة».

لكن هذا البطل المتصالح على الدوام بدأ يشعر بالقلق عندما تصاعد مناخ القلق والتوتر من حوله، وبدأ يفكر في أن الناس كانوا دائما يشعرون بأن الأحوال سيئة، لكن ما كان يجعلهم يصبرون هو أنهم كانوا قبل تدهور الأوضاع لا يفتقدون الشعور بالاستمرارية، فما دامت الأحوال مستمرة في كونها سيئة، فهذا أمر جيد، المشكلة أنها الآن يمكن أن تكون أسوأ وهذا ما أصبح يقلقه هو والأشخاص العاديين من أمثاله، صحيح أن قلقه لم يصل إلى درجة قلق زوجته هيلدا، لكنه كان قلقا غريبا على شخصيته كرجل عادي بدأ يحس هو ومن حوله أن العالم يسير في الاتجاه الخاطئ، ولذلك فقد قرر اللجوء إلى صديق عجوز له اسمه بروثيوس، وهو مدرس متقاعد أعزب يسكن في بيت قديم وحيدا مع كتبه وغليونه، كان ملما باللغتين الإغريقية واللاتينية ومحبا للشعر، وهو يتحدث يفضل أن يتمشى ذهابا وإيابا وهو يضع يديه في جيوبه، كل أحاديثه تدور عن أشياء وقعت منذ قرون، وكلما بدأت بالحديث معه عن أي موضوع يعود في حديثه إلى التماثيل

والشعر والإغريق والرومان، وعلى حد تعبير البطل فإنه: «إن كان نادي الكتّاب اليساري يمثل التقدم فإن بروثيوس يمثل الثقافة» وكلاهما غير نافعين في بلدتنا بلشلي... يريحك الاستماع إلى بروثيوس ويُبعدك عن عالم الترامات وفواتير الغاز وشركات التأمين، إلى عالم كله معابد وأشجار زيتون وطواويس وفيلة ورجال بشباكهم ورماحهم. لهذا من السخف أن يصادق وينسجم مع رجل مثلي، لكن من إيجابيات الرجل السمين القدرة على التأقلم في أي مجتمع، بالإضافة إلى أننا نلتقي في شيء مشترك يتعلق بالقصص الخليعة وهي الشيء المستجد الوحيد الذي يهتم به، رغم أنه يذكرني دائما أنها ليست حديثة لكنه في الحقيقة كان غِرّا في هذا المجال».

يروي بطل الرواية لنا حوارا طويلا وممتعا بينه وبين بروثيوس عن مخاوفه من المستقبل القادم في ظل سيطرة الفاشية، أرجو أن تلاحظ أن أورويل كتبه ونشره قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية بفترة قصيرة، وقبل سنوات من انتهاء الحرب بهزيمة الأفكار الفاشية وثبوت صحة رؤية بروثيوس الذي بدا دون شك للقراء وقتها رجلا مغيبا غافلا، مع أنه كان ينطق بحكمة قارئ للتاريخ يعلم أن التقدم الإنساني لا يمكن أن يتحقق إلا بعد أن تدفع المجتمعات الإنسانية ثمنه غاليا، يقول بطل رواية جورج أورويل: « قلت له: أخبرني يابروثيوس عن رأيك بهتلر. اندهش جدا وأخرج غليونه من فمه.

- أتقصد هتلر ذلك الرجل الألماني؟ أنا لا أفكر فيه يا صديقي العزيز.

ـ لكن المشكلة أن هذا الساقط هو الذي يجبرنا أن نفكر فيه قبل أن يموت.

خجل العجوز بروثيوس من كلمة ساقط وتابع مشيه ونفث دخانه: أنا لا أرى سببا للاهتمام به، إنه مجرد مغامر، وأمثال هؤلاء يأتون ويروحون، إنهم مؤقتون جدا.

ـ لم أكن أعرف معنى مؤقتين لكنني تشبثت برأيي: أعتقد أنك مخطئ لأن هتلر شيء مختلف وأيضا جو ستالين، فهما ليسا مثل رجال العصور القديمة الذين صلبوا الناس وقطعوا رءوسهم من أجل التسلية. إنهما يسعيان لإحداث شيء جديد تماما، شيء لم يسمع به أحد من قبل.

ـ يا صديقي العزيز لا يوجد ما هو جديد تحت الشمس.

طبعا هذا هو قول بروثيوس المفضل، وهو لم يسمع بوجود أي جديد، وكلما أخبرته عن شيء يحدث في الحاضر يقول لك إن الشيء نفسه حدث في حكم الملك فلان، حتى لو تكلمت عن الطائرات سيرد عليك إنها كانت في كريت أو أي مكان آخر في اليونان، حاولت جاهدا أن أشرح له عن الرؤى التي تصورتها عن الزمن الرديء القادم لكنه لم يصغ واستمر بتكرار عبارته عن عدم وجود أي جديد تحت الشمس، وتناول كتابا على الرف وقرأ منه مقطعا عن طاغية إغريقي عاش في عصور ما قبل الميلاد فبدا كأنه الأخ التوأم لهتلر».

ثم يختتم بطل الرواية حصيلة مناقشاته مع بروثيوس قائلا «يوجد ملايين مثلي من الرجال العاديين يحسون أن العالم يسير في الاتجاه

الخاطئ، أما هذا الرجل المتعلم والمثقف الذي أمضى حياته مع الكتب ونقع نفسه في التاريخ لا يستطيع أن يرى بأن الأشياء تتبدل، ولا يعتقد بأهمية هتلر، ويرفض تصديق قدوم الحرب الوشيكة، ربما لأنه لم يشارك في الحرب الأخيرة، ولم تدخل في صميم أفكاره، كذلك يعتقد أنها عرض تافه مقارنة بمشهد حصار طروادة، ولا يفهم لماذا الاهتمام بالشعارات ومكبرات الصوت والقمصان الملونة، وهو يكرر دائما مَن هذا الذكي الذي سيهتم بمثل هذه الأشياء، سيندثر هتلر وستالين لكن الأشياء التي يسميها العجوز بروثيوس حقائق أبدية ستبقى، وهذا شكل آخر للقول بأن الأشياء سوف تستمر بذات الدقة التي عرفناها منذ الأزل وإلى الأزل».

لا يبقى بعد أن صحبتك معي في هذه القراءة الطويلة لرواية جورج أورويل، إلا أن أحرص على تذكيرك ونحن في هذه الأيام التي يسود فيها سوء الظن، وهو على أيّ حال من حسن الفِطَن، أنني لا أهدف إطلاقا إلى التهوين من خطر الفاشية الدينية، فلعلك إن كنت تتابعني منذ بدأت الكتابة قبل عشرين عاما أو ما بعد ذلك تلاحظ أنني كنت حريصا على مقاومتها بكل ما أملك من حجة ومنطق وسخرية ومعرفة، لكنني أفخر بأنني كنت حريصا في نفس الوقت على ألا أكون فاشيا بدوري فأطالب بقمع من أعاديهم سياسيا، ولم أطلب أبدا الحرية لنفسي دون غيري، ولم يكن ذلك لأنني قديس أو ملاك، بل لأنني كنت حسن الحظ وأحببت دائما قراءة التاريخ مثل بروثيوس قبل حتى أن أعرف بوجوده في رواية لجورج أورويل، فأصبحت أومن مثله أيضا بأنه لا جديد تحت الشمس، وأن المتطرفين من كل

التيارات مؤقتون مهما بدوا غير ذلك، وأن ما يطيل في عمرهم هو انشغال معارضيهم بمعاداتهم أكثر من انشغالهم بالاستعداد ببدائل تصلح للتطبيق بعد انهيار المتطرفين.

نعم يا عزيزي، سينهار المتطرفون من كل التيارات طال الوقت أم قصر. بالدم والدموع أو بالدموع فقط مع قليل من الدم، كل شعب وشطارته، وكل شعب وما يدفعه من ثمن، لكن في النهاية لن يمكث في الأرض إلا من يمتلك ما ينفع الناس ومن يجيد التعامل مع الواقع بحكمة وعقلانية، فإذا كنت تظن في نفسك أنك كذلك، حاول فقط أن تكون جاهزا لتلك اللحظة، ولا تدع محاربتك للفاشية تتحول من وسيلة إلى هدف، ومن مهمة مرحلية إلى أفيونة تلهيك عن التفكير في المستقبل والاستعداد له.

لذة الكراهية!

أحيانا يكون الحل المنجي من التهلكة هو الحل الذي يثير سخرية أغلب الناس وشتائمهم ورفضهم الكامل. حاول مثلا مثلا يعني أن تقول لمن وجدوا أنفسهم تائهين في الصحراء أن نجاتهم من هلاك التيه، تتطلب الصبر والتفكير والتماسك والبعد عن الانفعالات المفرطة التي يعقبها انهيارات مفاجئة، وستفاجأ أنك جلبت لنفسك لعنات لن تحصل عليها لو كنت قد اشتركت معهم في العويل واللطم وتبادل الاتهامات.

في وسط صحراء الهستيريا التي تحيط بنا من كل الجهات، تبدو الكراهية هي الأكثر انتشارا وقبولا وإقناعا، لأنها تبدو ألذ وأشهى من أي حديث ثقيل الظل عن حتمية قبول الآخر وضرورة العيش المشترك حتى مع الذين نكرههم ويكرهوننا، فمشكلة الثمن الباهظ المرير للكراهية أنه لا يظهر إلا بعد أن تدفع الأمم ثمنه كاملا، وتكون مجبرة على تسديد فواتير الكراهية وتحمل تبعاتها حتى النهاية.

للأسف «لا يوجد في الدنيا عامل يوحد الناس أكثر من الكراهية»، هكذا يقول المفكر الأمريكي إيريك هوفر في كتابه (المؤمن الصادق) بعد أن درس صعود الحركات الفاشية والنازية قبل منتصف القرن العشرين، ورصد كيف تجتذب الكراهية الشخص من نفسه وتنسيه ما حوله ويومه ومستقبله، وتحرره من الرغبة في الإنجاز، ليتحرق شوقا إلى الالتحام بمن يشاركونه في الكراهية ليشكلوا معا جمهورا شديد الاشتعال تقوده كراهية الذين تعرضوا للظلم على أيديهم، لكنه لا ينتبه إلى حقيقة مهمة هي أن الكراهية تجعله يعيد صياغة نفسه على شكل ظالميه، لذلك نرى كيف تُكرِّر جماعة الإخوان خطايا الحزب الوطني، ويكرر كارهو الإخوان الآن خطايا الإخوان، فيبقى الشر حتى بعد أن يذهب فاعلوه، لسبب بسيط ومرير هو أن الذين يكرهون الشر يقومون بتشكيل أنفسهم على شاكلته، فيديمون وجوده.

يرى إيريك هوفر أن الكراهية وسيلة سهلة لإجبار أي جماعة بشرية على أن تدافع عن نفسها، إلا أنها على المدى البعيد ذات ثمن باهظ يتم دفعه عندما يتخلى الناس عن القيم التي كانوا يدافعون عنها، وفي ظروف كهذه لا تصبح الكلمة للعقلاء بل للمحبطين الذين يروجون لأفكار تدعو إلى الانهيار الشامل كضرورة لبناء عالم جديد، ولأن هؤلاء في الأساس أناس تافهون، كما يلاحظ هوفر فإنهم يجدون في الكراهية شيئا يمنح حياتهم الفارغة معنى وهدفا، ولذلك فإن شعاراتهم المتطرفة تجذب إليهم جماهير المحبطين الذين يفضلون أن يكونوا جزءا من مجموع غاضب يفكر لهم وعنهم، على أن يكونوا أفرادا مطالبين بتحمل مسئولية التفكير والتعقل، ولذلك يتخلى كثير من هؤلاء الأفراد عن بقايا الطيبة في أنفسهم ليدعموا الشعارات المتطرفة

الجديدة، وعندما يحدث ذلك لا يستطيع أحد أن يتوقع حدود القسوة والعنف التي يصل إليها الإنسان، حيث تصبح الحرية الجديدة التي يتمتع بها هي حرية الكراهية والتخويف والكذب والتعذيب والقتل دون خجل أو ندم، وينشأ هنا الحق في الانتهاك الذي تحدث عنه دوستويفسكي ذات مرة قائلا: إن «له جاذبية لا تُقاوم»، تلك الجاذبية التي تجعل الداعين إلى التعقل والتفكير هدفا للسخرية لأنهم لا يقدمون للناس ما يرضي غريزة الانتقام التي تعربد في صدورهم، حتى لو كان ذلك الانتقام كفيلا بتدمير المجتمع عن بكرة أبيه.

في روايته الحزينة (حارس التبغ) يحكي الروائي العراقي علي بدر عن الطريقة التي تمكن بها صدام حسين باستخدام الشعارات الوطنية من تدمير بنية المجتمع العراقي، بتحويل المواطن عبر تمجيد القسوة والسادية إلى مواطن عنيف الصفات من فضائله الغطرسة والاندفاع والفظاظة، لينشأ في فترة حكمه شعب مصاب بانفصام الشخصية يردد ادعاءات عن عظمته وتفرده، في حين يعيش واقعا مخزيا تسببت فيه سلطة مستبدة سحقت الجميع، كل ذلك لأن السلطة حرصت على ترويج الأفكار اللا عقلانية بين الناس، ومَجّدت العنف والدم، ولكي تسيطر على البلاد أخذت تروج لنظريات التآمر الخارجي والطابور الخامس والأعداء الذين يجب أن يتم الالتفاف حول القائد لإنقاذ البلاد منهم، لينشأ في النهاية «ما يمكن تسميته بإمبراطورية الغل وجمهورية الدهماء الذين اعتمد صدام عليهم ليبقى في الحكم، لكن غِلَّهم هو الذي أكله فيما بعد، ليس وحده، بل أكل الدولة والمستقبل والتاريخ كله، وأوصل البلاد إلى ذلك التشوش الكبير في العقل والعنف غير المحدود والحركة الزائدة التي لا يمكن كبحها».

كان بطل الرواية العازف الموهوب يخاف من قدرة السلطة على توظيف النزعة المدمرة التي توجد لدى الجماهير الغاضبة لتحقيق أهدافها، كان «يدرك كيف تقوم السلطة المستبدة بتحطيم القوى المعارضة لها بتسخيفها والسخرية منها وحرقها والطعن في وطنيتها، ليخلو المجال تماما للغوغائية، ويصبح هناك تنافس بين الحكومة والشعب حول من يقتل أكثر ويبطش أكثر ويخرب أكثر، وتشهد البلاد نوعا من طقوس عبادة الدم يجعل الإيمان بالقتل وتدفق الدماء وسيلة الشعب لبلوغ النشوة»، وهي نشوة لعلك لا تحتاج لأن أذكرك إلى أين أوصلت العراق، رده الله سالما لأهله وجنب بلادنا من ذلك المصير المظلم الذي صار إليه.

لن نصل إلى ذلك المصير بإذن الله، سيسود صوت العقل حتما، وستصبح الإنسانية هي القاعدة لا الاستثناء، وستتعلم كيف نعارض المخالفين لنا في الرأي بشراسة دون أن نصبح فاشيين وحقراء وانتقائيين وظلمة مثلهم، سيصبح العيش المشترك اختيارا يجبر الواقع عليه الجميع بعد أن يدركوا خطورة كافة الاختيارات ويجربوها بأنفسهم، أثق أن تلك الأيام قادمة لا محالة، لكن حتى يحدث ذلك في حياتي أو حياة من بعدي، سأظل أستحضر تلك العبارة العبقرية التي كتبها العظيم زياد رحباني معلقا على أجواء الحرب الأهلية في بلاده «أنا ما عاد بدِّي أغير ها البلد.. أنا بس ما بدِّي ها البلد يغيّرني»، وهي عبارة لن يعرف الكثيرون قيمتها إلا بعد أن تزول لذة الكراهية وتبقى آلامها المبرحة.

يا خفي الألطاف نجنا مما نخاف.

إمام الساخرين وحجة الساخطين..عزيز نيسين

«بين حين وآخر يسألني الكثيرون: كيف تكتب بهذه الكثافة؟ يقولون إن هناك جنيات وساحرات يلهمن الكتّاب والفنانين... عن نفسي لاأملك ساحرة إلهام، ولكنني أملك جنية إلهام وغول إلهام، جنياتي لايشبهن البشر أبدا، إنهن يمتلكن عشرة بالمائة من الإنسانية، وتسعين بالمائة من أشكال الوحوش، جنياتي لا تعشن فرادى بل على شكل قطعان، الساحرات منهن قبيحات الشكل والمنظر، والجنيات رائعات الخُلق والخَلق، الساحرات تضربنني والجنيات تُمسّدن شعري وجسدي، جنيات الإلهام وساحرات الوحي، عندما تهمسن في أذن الفنان تلهمنه وتفتحن أمامه أبواب الفن والإبداع، ولكن ساحراتي وجنياتي يتعلقن على ظهري دائما ويضربنني كالوحوش ويصرخن في وجهي. هيا اكتب، لا تتوقف اكتب. لماذا أنت متوقف هكذا؟ من سمح لك أن تنام؟ هيا استيقظ. لا تجلس هكذا. هيا تحرك بسرعة. لا يحق لك أن تمرض أو تكتئب أو تتوقف. هيا تحرك. اكتب.... إذا لم أكتب، ماذا أفعل يعني؟ من زمان تعلمت أن لا شيء

يلهم الإنسان ويدفعه إلى العمل الزائد مثل الحذاء المثقوب.... عندما أنظر إلى المروج الخضراء الندية أتمنى التمدد فوقها طولا وعرضا حتى لو لحظات. لو أستطيع المشي حافيا فوق الرمال. أحسن وكأن تعب السنين الماضية من حياتي سيغرق في جوف الأرض، سيأتي يوم أرتاح فيه نهائيا، ولكن مع الأسف لا أعرف إذا كنت سأرتاح فيه من التعب أم لا. عندما يسألني أحدهم كيف تستطيع الكتابة بهذا الشكل؟ أشعر حقا بغضب خفي مفاجئ كأننا نكتب على كيفنا. نكتب لأننا في ضائقة. في فاقة. ولكن لو حصل شيء لا يمكن تصديقه وولدت مرة ثانية وجئت إلى الحياة مرة أخرى فلن أستطيع اختيار سوى هذه الطريق، أظل هكذا، أتمنى الرحيل سعيدا من تعب هذا العالم اللذيذ. أكتب بمواضيع مختلفة. أبحث في أمور كثيرة وأبدع في متاهات الأدب المختلفة، وأعتقد أن سبب ذلك يعود إلى معاشرتي لجميع طبقات المجتمع عندنا، وعملي كبائع أحذية وراعٍ وجندي ومحاسب ورسام وبائع صحف وماسح أحذية وبقال وحلاّق وكاتب صحفي، أما البطالة فقد كانت من أصعب المسالك على الإطلاق».

كنت سأصبح في منتهى السعادة والفخر لو كنت أنا الذي كتبت السطور السابقة المليئة سحرا وهمًّا وشجنا، لكنني لست أنا الذي كتبها للأسف، بل كتبها الروائي والقصاص والمسرحي والصحفي والساخر التركي العملاق عزيز نيسين أستاذي ومعلمي وملهمي وأحد آبائي العظام والذي لطالما سألت الله عز وجل مخلصا أن يعينني على ترك صحيفة أعمال باهرة مشرفة مشرقة كالتي تركها أو أفضل من التي تركها، فعشمي في الله كبير.

اختار عزيز نيسين هذه السطور لكي يُصَدِّر بها سيرته الذاتية غير المكتملة «هكذا أتينا إلى الحياة»، أي أنه أراد أن تكون مدخل القارئ إلى التعرف عليه كواحد من أغزر الكتاب إنتاجا في العالم وأكثرهم رواجا وتأثيرا وترجمة، فقد رحل تاركا خلفه مائة وعشرين كتابا صدروا جميعا في حياته التي دامت ثمانين عاما من الحرمان والعطاء والصخب والعنف والسخرية والإنسانية، فضلا عن كتب أخرى يتم نشرها حتى الآن بعد جمعها من تراثه المديد الذي تركه في عشرات الصحف والمجلات التي كان يكتب فيها بأسماء مستعارة لسنوات طويلة تم منعه فيها من الكتابة لأسباب سياسية تعددت بتعدد الحكام الذين سجنوه أو نفوه أو منعوه من الكتابة.

قد يُذَكِّرك هذا العدد الضخم من الكتب الذي تركه عزيز نيسين خلفه بكُتّاب من بني جلدتنا يكتبون على روحهم كتبا مليئة بالهذر والنقل من الكتب العربية والأجنبية ليس فيها إبداع أو ابتكار، وقد تظن كتب عزيز نيسين من هذا النوع، لكنك ستذهل عندما تعرف أن كل ماتركه عزيز نيسين خلفه كان أعمالا إبداعية أصلية مابين رواية وقصة قصيرة ومسرحية وسيرة ذاتية ومسرحيات وقصص للأطفال، وللأسف لم يترجم منها إلى العربية سوى أقل من نصفها.

عزيز نيسين ليس هو الاسم الحقيقي للرجل، فاسمه الحقيقي محمد نصرت، وقد اختار لنفسه اسم عزيز نيسين كاسم مستعار ليكتب به في الصحف عندما كان طالبا في الكلية العسكرية حيث كان ممنوعا على العسكريين أن يكتبوا في الصحف، فما بالك به وهو ينشر

قصصا ومقالات ساخرة، ولأنه «فقري» من يومه فقد اختار لنفسه هذا الاسم الذي يعني بالتركية «ماذا أنت؟»، أي أنه على حد تعبير أحد مترجميه فاروق مصطفى اختار كنية يسخر بها من شخصه ويعتبر نفسه نكرة، فيوجه إليها تساؤلا هازئا مستخفا بصيغة غير العاقل «ماأنت أو ماذا أنت؟»، وربما كان ذلك مدخلا يساعدك على فهم شخصية هذا الكاتب العظيم.

لا ألومك البتة إذا كنت لم تسمع بعزيز نيسين من قبل، فثمة جهل مطبق لدى كثير من مثقفينا ونقادنا به، فهم لا يقدرون عادة إلا من يجد تقديرا في الأوساط الغربية التي نستهلك كل ما تصدره لنا، حتى لو كان نطيحة أو متردية أو منخنقة، وكم أخذ الواحد فينا من مقالب طنطن لها النقاد طويلا وأطنبوا في تمجيدها وتفخيمها ولم نجد منها ما يروي ظمأ أو يشفي غليلا.

ليس التجاهل الغربي للرجل الذي كان معروفا بميوله اليسارية المتطرفة والمعادية للغرب هو وحده الذي كان وراء التعتيم عليه، بل كان ظلم ذوي قرباه في تركيا أشد مضاضة عليه، فقد عاش الرجل حياة كلها معارك وصراعات سياسية وأدبية، وكان لديه من الاعتداد بنفسه ما يجعله لا يصمت على مارآه في زمنه من نفخ لكتّاب مديوكر محدودي الموهبة؛ لأن لديهم انتماءات سياسية أو شللا نقدية أو تربيطات حزبية جعلتهم ينالون ما لا يستحقونه من الاحتفاء والتقدير، أخذ يسلق نقاد زمنه بألسنة حداد من خلال أعمال أدبية ساخرة رصد فيها تناقضات المثقفين والكتاب الأتراك، الذين لم يرحموا الرجل

في حياته فكانوا يصفونه تحقيرا واستخفافا بكاتب النكات أو الكاتب الهزلي، في حين اعتز به مثقفون أتراك آخرون على رأسهم الكاتب التركي ديمرتاس سيهون الذي كتب عنه كتابا أسماه «جحا عصرنا عزيز نيسين»، ربط فيه بين القيمة الرفيعة التي حظي بها نصر الدين خوجة أو جحا في تاريخ الأدب العالمي وبين القيمة التي قدمها عزيز نيسين في كتاباته وقصصه الساخرة.

سخريات نيسين من الأدباء المسيسين محدودي الموهبة لم تجعله يسلم من عداء أغلب نقاد عصره، بل إن أغلبهم لم ينسوا له هجماته اللاذعة ضدهم فأحاطوه بستار من التعتيم والتجاهل بعد موته، وهو ما أدى إلى تناقص حاد في مبيعاته بعد رحيله عام ١٩٩٥، بعد أن ظل لأكثر من خمسين عاما أعلى كتّاب تركيا مبيعا. أعترف أنني من فرط عشقي للرجل كنت أظن أنني عندما أذهب إلى تركيا وبمجرد نزولي سأجد ملايين الأتراك يقرءون كتبه ويحفظونها عن ظهر قلب، كنت قد قرأت عن المؤسسة الخيرية التي أقامها في مدينة إستانبول للأطفال الأيتام، والتي أوقف عائدات كتبه من أجلها بل وأصر على أن يدفن فيها، وكنت أظن أن الرجل من الشهرة بمكان بحيث لايخفى مكان مؤسسته على أحد، لكنني فوجئت أن أغلب من أسألهم عنه وبعضهم مثقفون وجامعيون لايعرفون شيئا عن الرجل، وبعضهم سمع به أو قرأ مصادفة بعض قصصه للأطفال، وبعضهم شاهد أفلاما سينمائية كوميدية مأخوذة عن روايات له، أحبطني ذلك جدا لدرجة أن سؤالي عن الرجل اتخذ شكلا من الهوس فأخذت أراهن زوجتي على كل شخص ممن نقابلهم بأنه سيكون لامحالة ممن يعرفون الرجل، وكنت

أخسر الرهان في كل مرة، ثم جاءت الصدمة الأكبر عندما دخلت إلى أكبر مكتبات إستانبول الكائنة بشارع الاستقلال بمنطقة تقسيم الشهيرة، بالطبع وجدت الرجل معروفا هناك، لكنني صدمت عندما لم أجد كتبه ضمن الأعمال الأدبية بما فيها الأعمال الشعبية الرائجة، بل وجدتهم يضعونها ضمن قسم اسمه «مزاح» وهو مصطلح يطلق على كتب التسلية أو الكتب الساخرة، بحيث تتجاور كتبه مع كتب النكت والطرائف والنوادر، وهو مايعني أن أعداءه نجحوا في تصنيفه كما رغبوا تماما، وفرضوا ذلك الذوق على أصحاب المكتبات حتى لو لم ينجحوا في فرضه على معجبي عزيز نيسين، الذين أجبروا بعض المكتبات على تخصيص أماكن خاصة لكتب عزيز نيسين دون تصنيف لها.

وأنا أتأمل كتب عزيز نيسين في موقعها القصيّ بداخل مكتبات إستانبول الرفيعة شعرت بضيق شديد، ليس فقط لأنني أدركت أنه لاكرامة لنبي في وطنه، وأننا ورثنا عن الأتراك أشياء كثيرة منها عدم تقدير مبدعينا حق قدرهم، بل لأنني أدركت مأساة الكاتب الساخر في المجتمعات المتخلفة أو التي لم تصل إلى درجة رفيعة من التقدم بعد، قارنت بين مصير مارك توين أو برنارد شو وغيرهم من الكتاب الساخرين، وبين مصير عزيز نيسين في تركيا وكاتبنا الكبير محمود السعدني الذي تعامل معه النقاد والمثقفون في بلادنا بخفة وتعالٍ، ولم يقدروه حق قدره، مع أنني أعتبر مثلا رباعية الولد الشقي التي كتبها واحدة من أعظم الأعمال الروائية وأصدقها وأكثرها تعبيرا عن الشخصية المصرية، لكن النقاد للأسف احتفوا بأعمال أقل موهبة

وتميزا منها لأسباب تبدأ بالشللية الأدبية وتنتهي بأذواقهم المريضة فعلا، أخذت أستعرض أوجه الشبه بين عزيز نيسين ومحمود السعدني، سواء من حيث الحياة الحافلة المدهشة أو المعاناة التي عاشها كل منهما ليبقى على قيد الحياة، فضلا عن أن يحقق تلك الشعبية الكاسحة لدى القراء، ثم أخيرا التجاهل شبه التام للرجلين من النقاد والمثقفين والأجهزة الثقافية الرسمية برغم كل ماحققاه من نجاح.

لم أتمالك نفسي من البكاء وأنا أطالع كتب عزيز نيسين المطبوعة طباعة فاخرة والتي يوجد خلف كل منها صورة له مع الأيتام في مؤسسته الوقفية لتذكير القارئ بأن عائدات الكتاب ذاهبة لهم، تذكرت وأنا أشاهد صوره مع الأيتام ماأذهلني وأسرني وزاد غرامي به وهو يتحدث عن ما دفعه لكي يتخذ خطوة إنسانية نبيلة كهذه، يقول في إحدى حواراته الصحفية التي يظهر فيها الفرق بين الأديب الذي لاينفصل أدبه عن حياته الشخصية وبين أدباء الثرثرة والتنظير: «لقد عشت طفولة معذبة في ملجأ للأيتام وأعتقد أن حياتي كلها من صنع هذا الملجأ، فلولا رعايته لما كان هناك عزيز نيسين، لذلك فإنني مهما فعلت من أجل مؤسسات الأيتام لن أسُدّ بعض الدين الذي لها في عنقي، لقد خطرت فكرة إقامة الملجأ ببالي عام ٧٤، فقد أدركت حينها أن الجلوس مع هؤلاء الأطفال وتربيتهم وتوفير الحماية الاجتماعية لهم وإشعارهم بإنسانيتهم، أهم بكثير من التسكع في الشوارع أو الجلوس على المقاهي من أجل الثرثرة أو ارتياد الحانات من أجل الشرب، لذلك اشتريت سبعين ألف متر مربع وأقمنا عليها خمسة أبنية من سبعة أبنية سيتم إنجازها مستقبلا، وقد خصصت لدعم

هذا الملجأ ريع تسعة وخمسين كتابا من كتبي، كان قد بيع منها حوالي أربعة ملايين نسخة وكانت ستوفر للملجأ دخلا لابأس به».

استبد بي الشوق لزيارة مؤسسة عزيز نيسين وقراءة الفاتحة على قبره وزيارة المتحف المصغر المقام له والذي كنت قد قرأت عنه ورأيت صوره في أغلفة كتبه، بحثت عن العنوان بداخل الكتب فلم أجده، سألت في كل مكتبة دخلت إليها فلم أستدل على العنوان، فكرت أن أتصل بالدليل، ويازين مافكرت، فقد أصبح لدى الأتراك فعلا حكومة إلكترونية، حصلت من الدليل على تلفون «عزيز نيسين وقف» هكذا يسمونه واتصلت به ظنا مني أنه بداخل إستانبول، ومع أن زيارته لم تكن سهلة أبدا، إلا أنني عزمت على أن أشد الرحال إليه لعلي أجد بين ورثته من يساعدني على تحقيق حلم من أهم أحلام حياتي، بتحويل بعض رواياته إلى أعمال درامية.

لم أكن أتخيل أن «وقف عزيز نيسين» أو حلمه الذي نذر له سنين طويلة من عمره وأغلب مبيعات كتبه سيكون بكل هذا الجمال، كنت أتخيل من قراءاتي عنه قبل أن أسافر إلى تركيا أنه لن يكون سوى شقة بها مجموعة من الأيتام أو في أحسن الأحوال فيلا من دورين كما هو حال الملاجئ لدينا، لكنني فوجئت تماما بما رأيته.

سبقتك في الكلام ولم أقل لك إن الوقف لم يكن داخل إستانبول أساسا كما توقعت من فرط ماقرأت عن إستانبول في كتابات عزيز نيسين والتي قرأت أنه أوصى بأن يدفن فيها، لكن ماقرأته لم يكن صحيحا على مايبدو، كان علينا أنا وزوجتي لكي نصل إلى وقف

عزيز نيسين ومدفنه أن نركب مترو الأنفاق من ميدان تقسيم في وسط المدينة لمدة نصف ساعة حتى نصل إلى قرب نهايته في محطة يني بوسنيا أو البوسنة الجديدة كما يطلق عليها نسبة لاكتظاظها بالهاربين من البوسنة، ثم ننزل هناك لنخرج إلى محطة أتوبيسات تشبه موقف عبود في كآبته وإن اختلفت عنه كثيرا فهي نظيفة للغاية، من هناك ركبنا ـ كما قيل لنا ـ أتوبيسا ينادي عليه صبي رخيم الصوت بنفس الطريقة المصرية « شطالجي.. شطالجي»، كان الأتوبيس مكيفا مع أنه مخصص لخدمة مناطق شديدة الفقر، بعد تحرك الأتوبيس يمر الصبي على الركاب ليسأل كلا منهم عن وجهته وفي يده كشف به اسم كل منطقة وأمامها سعر الركوب الخاص بها، اتضح أن وقف عزيز نيسين إحدى المحطات الرئيسية في القائمة، فرحت للرجل كثيرا، لاتدري لماذا، ربما لأن تراثنا المصري يحتفي بفكرة المحطة والاسم الذي يطلق عليها، وربما لأننا لم نعتد فكرة أن يطلق على المحطات أسماء أدباء، أخذت أتخيل لو جاء اليوم الذي نسمع فيه عبارات مثل «ياحضرات المحطة الجاية إبراهيم أصلان.. اديني تذكرتين خيري شلبي.. كنت نازل بهاء طاهر بس راحت عليَّ نومة هانزل إبراهيم عبد المجيد بقى واتمشاها».

بدأ الأتوبيس رحلته بالسير في طريق محاذٍ لمطار إستانبول المسمى بمطار أتاتورك ككل شيء في تركيا تقريبا، بعد قليل انحرف الأتوبيس يمينا بمحاذاة بحيرة خلابة تحيطها حقول شاسعة مزروعة بأزهار عباد الشمس، إذا كنت ممن يعتقدون أن ذكر اسم عباد الشمس حرام شرعا فدعني أقل لك: عباد الشمس عباد الشمس عباد الشمس، كان خليط

الألوان بديعا، ولولا خوفنا من التوهة لطلبنا النزول من الأتوبيس لنتملى ونتمشى في هذا المنظر البديع الذي لايراه أمثالنا عادة إلا في خلفيات الكمبيوتر ولوحات المطاعم الشيك، بعد عدد من المحطات التي كان يركب في كل منها عدد من الركاب بعضهم من الفلاحين بما يحملونه من منتجات غذائية سيطرت روح أتوبيسات هيئة غرب الدلتا على الأتوبيس، ولم يعد للمكيف أي مفعول، وبدأ العرق يشر من كل حتة في الأتوبيس، لكن شيئا سحريا كان يحفظ لكل راكب من الركاب مساحة لا تتعدى السنتيمترات تعصمه من الالتصاق بمن إلى جواره، الأهم من ذلك أنه لا أحد مشغول بالنظر إلى الآخر غيرنا طبعا، عادتنا ولن نشتريها، الكل ينظر باتجاه لا يحلق فيه في الآخر، المشكلة الوحيدة في هذا الجو الحضاري أن الكرسي كان ضيقا للغاية بحيث التصقت ركبتي فيه التصاقا لم يبدو أنني سأفلت منه، طلبت من زوجتي عند قدوم المحطة أن تبادر بالنزول وتتصنع أنها لا تعرفني لكي تنقذ نفسها من حرج القهقهات التي ستنطلق عندما يراني الناس وأنا أحاول فك نفسي من أسر الكرسي، لكنها كانت أصيلة بحيث وقفت بكل إباء وشمم لتنتظرني وأنا أقوم من الكرسي بالورب، وربما لذلك كافأتها السماء بأن أحدا لم يضحك على زوجها، لأن أحدا لم ينظر لنا أساسا.

عندما وصلت إلى الباب حيث قيل لنا إننا وصلنا إلى وقف عزيز نيسين، أطللت على المكان فوجدت مبنى كبيرا يقع وسط حقول خلابة تقع على ضفاف بحيرة ساحرة، داهمني الشك أن يكون هناك مليونير تركي اسمه عزيز نيسين يمتلك مثل هذا القصر، ونكون وقتها

قد شربنا مقلبا متينا، استوقفت زوجتي لحظة وسألت الصبي تباع الأتوبيس مشيرا إلى المبنى بلهجة متسائلة «عزيز نيسين وقف؟»، رطن بكلام فهمت منه «أيوه هوه خلَّص ماتقرفناش»، عندما بدأ الناس في النظر إلينا لأول مرة متأففين من تعطيلنا لهم، نزلنا فورا من الأتوبيس.

هذا إذن هو وقف عزيز نيسين كما تقول اللافتة المحفورة بالتركية على الباب، صحيح، هذا اسمه كما ينشر على كتبه، لكن هل هذا هو المكان حقا؟ تساءلت: «هيّ الكتابة في تركيا طلعت تكسِّب كده زيّ أوروبا وأمريكا؟»، فقالت لي زوجتي: «إنت هتقر قبل ماتدخل.. مش تستنى لما تدخل؟»، كلام منطقي والله، لنؤجل القر إذن وندخل من الباب المفتوح بلا حراسة ونتجول في الحقول البديعة قبل أن نصل إلى المبنى الأبيض الكبير، الذي لفت انتباهنا على بابه دولاب ضخم به عدد كبير من أحذية يبدو من مقاسها أنها لأطفال من أعمار مختلفة، استغربت أن يترك دولاب كهذا بلا حراسة فالأحذية تبدو ثمينة للغاية، ثم استغربت أكثر أن أفكر بمنطق حرامي جزم وأنا قادم لزيارة وقف كاتبي المفضل.

عندما دخلنا إلى المبنى استوقفنا موظف شاب مُرحِّبا بنا ترحيبا أليطا كعادة الأتراك الذين لايندلقون في ترحيبهم بالآخرين مثلنا، سرعان ماواجهتنا المشكلة الأثيرة لكل من يزور تركيا، اللغة، جميل ألا يتكلم هذا الشعب إلا لغته ويعتز بها، لكن ماذنب السياح بس ياناس، فشلت كل محاولاتنا في شرح ماجئنا من أجله، لكنه عندما قلنا له: «يو سبيك إنجليش»، أمسك في كلمة «إنجليش» بقوة وهز رأسه مشيرا لنا بأن ننتظر قليلا، ثم دعانا للدخول إلى بهو المبنى لتتفتح مغارة علي بابا

بالنسبة لعاشق من عشاق عزيز نيسين مثلي، أدخلنا إلى البهو الذي كان متحف عزيز نيسين الواقع داخل المبنى وذهب ليحضر لنا أحدا له في الإنجليش، لم يكن لدينا مانع الآن في أن يتأخر متكلم «الإنجليش»، فلدينا متسع لتفقد مكونات المتحف الذي يضم أغلفة كل كتب عزيز نيسين بالتركية ومثيلاتها المترجمة إلى عشرات اللغات، لم يكن بينها باللغة العربية سوى كتاب اسمه أطفال آخر الزمان صدر من زمان في سوريا، تذكرت أنه فعلا تم تصديره بمقدمة لعزيز كتبها خصيصا للطبعة العربية من الكتاب، الذي يحكي بشكل ساخر ساحر عن علاقة عزيز نيسين بأطفال زمانه وفجوة الأجيال التي تنشأ بين الأطفال والشيوخ، استغربت ألا يوجد أي غلاف آخر من كتبه التي صدرت بالعربية والتي زادت على الخمسة والخمسين كتابا. على الحوائط عُلِّقت صور له خلال رحلاته إلى كل بلاد الدنيا، ليس للأسف من بينها صور له في مصر؛ مع أنه زارها أكثر من مرة في الستينيات أيام كان اتحاد الكتاب الأفرو آسيويين لا يرأسه الدكتور مجدي مرجان ولا مؤاخذة.

في موقع من البهو كان هناك فاترينة زجاجية بها عدد ضخم من الأوسمة والميداليات التي نالها من كافة الدول، من بينها وسام من مصر وآخر من سوريا، وإلى جوارها فاترينة أخرى بها عدد مهول من العملات المعدنية من مختلف الدول، ظننتها هوايته الوحيدة قبل أن أعرف فيما بعد أنها لم تكن قاصرة على العملات، في ركن آخر آلتان كاتبتان قديمتان جدا وإلى جوارهما ماكينة خياطة لعلها الأولى في العالم كله، في ممر ملاصق للبهو وضعت عشرات الرسوم الكاريكاتيرية التي رسمها له عدد من أشهر رسامي تركيا وأوروبا والتي كانت تنشر مصاحبة لمقالاته الساخرة وقصصه.

بعد أن انقضت ربع ساعة بدا أننا محتاجون بشدة لمن يفك لنا العديد من الطلاسم الموجودة في المكان وعلى رأسها ماكينة الخياطة الموجودة في ركن من المكان، والأهم من ذلك معطف أبيض ملطخ ببقع غير ممكن تحديد لونها بدقة، لم أفهم أبدا سر تعليق معطف متسخ بهذه البقع في صدر المكان، ولم تطل حيرتي فقد وصل الشاب الأول وبصحبته رجل عجوز لكنه يبدو رشيق الخطوة ومفرود الضهر بما لايتسق مع تجاعيد وجهه التي تكشف عمره، وشاب بهي الطلعة اتضح أنه خبير الإنجليش، رحب بنا بحرارة وعرفنا بالرجل العجوز بوصفه مدير الوقف ورفيق عمر عزيز نيسين والوحيد الباقي على قيد الحياة من أصدقائه ورفاقه، سألنا من أين نحن وعندما قلت له «إيجيبت»، استغرب للحظة مثل باقي الأتراك، قبل أن ننتبه إلى أن الأتراك يستخدمون كلمة «ميصر» أكثر من إيجيبت بحكم سنين احتلالهم الطويلة لها التي جعلت اسم مصر يصبح جزءا من لغتهم، حتى أن كوز الذرة يطلق عليه اسم «ميصير» لأن الأتراك عرفوه في مصر وحملوه معهم إليها، ردَّ محتفيا «ميسير.. ميسير.. أوووه.. ويلكم»، لم أصدق عندما قال الشاب إننا أول عرب نزور هذا المكان على الإطلاق، قلت له ربما زاره أناس غيرنا وأنت غير موجود، ابتسم وقال لنا إنه موجود في هذا المكان منذ افتتاحه قبل خمسة عشر عاما، ثم أشار لنا إلى صورة تجمع عزيز نيسين في شيخوخته وقد اشتعل رأسه شيبا وهو يجلس وسط مجموعة من الأطفال لايتجاوز عددهم العشرة، مشيرا إلى طفل في الصورة، قائلا: «هذا أنا عندما التحقت بالدار في أول دفعة دخلته»، تأثرنا للغاية عندما التمعت عيناه بالدموع،

لكنه تمالك نفسه قائلا: إن أغلب الأطفال الذين ترونهم في الصورة تخرجوا ليعملوا في الدار مدرسين ومشرفين رياضيين وهم الذين يقودون المكان الآن.

نظرت إلى عزيز نيسين في الصورة،كان على وجهه ابتسامة تمزج بين الرضا والفخر، بالتأكيد كان وقتها سعيدا بما أنجزه، لكن هل كان يشعر أن هؤلاء الأطفال الجالسين إلى جواره سيدينون له بكل حياتهم فيما بعد وسيحملون راية الخير التي رفعها ليتناقلوها جيلا بعد جيل؟! سألته عن سر هدوء الدار الشديد وعدم وجود أحد على الباب كما يفترض، فقال لنا: إن جميع أطفال الدار مشغولون بممارسة النشاط الرياضي الآن وأن الحارس نفسه يقوم بدور حكم في مباراة كرة قدم، قائلا لنا إنه مع اتساع إمكانيات الدار وصل عدد الأيتام ومجهولي الهوية الذين تتبناهم وتقوم بتعليمهم وإعاشتهم حتى يكبروا إلى حوالي أربعين طفلا، لم يشعر بحرج عندما حدثنا عن كونه من مجهولي الهوية الذين في الدار، بل قال لنا بفخر: إن بعضا منهم تخرجوا من هنا وتزوجوا وأصبحوا ناجحين للغاية في حياتهم، فاض بي الحنين إلى عزيز نيسين فطلبت منه أن يقودنا إلى قبره لكي نقرأ له الفاتحة وندعو له بأن يجزيه الله خير الجزاء على عطائه الإنساني النبيل، ضحك مترجما كلامنا إلى الرجل العجوز الوقور الذي ضحك بدوره، وقال له كلاما بالتركية أذهلنا عندما عرفنا معناه وزادنا حبا لعزيز نيسين.

كان عزيز نيسين قبل رحيله قد أوصى رفاقه وتلاميذه بأن يدفنوه داخل الوقف لكي يكون قريبا دائما من الأطفال، لكنه في نفس الوقت أوصى بألا يدفنوه في قبر معروف المكان له شاهد وما إلى ذلك؛ لكي لايخيف وجوده الأطفال ويذكرهم بالموت وهم أحوج مايكونون إلى تذكر الحياة دائما وأبدا، ولذلك عندما مات عام ١٩٩٥ تم إحضار «تُربي» من خارج المنطقة وتم إخلاء الوقف كله، ولم يحضر دفنه إلا صديقه الذي رأيناه، وهو الوحيد الذي يعرف مكان دفنه، تأثرت بإنسانية هذا الأديب العظيم ورقته التي تنضح بها لفتة بسيطة كهذه، قلت لصديقه مداعبا: يعني لايمكن أن تتنازل عن هذا السر لأحد قادم من قارة أخرى كي يزور قبره ويقرأ له الفاتحة؟ قال لي ضاحكا: إن عزيز نيسين أوصى من يريد أن يزور قبره بأن يقف عوضا عن ذلك على آلته الكاتبة التي قضى عليها وقتا أطول من الذي قضاه في قبره، فقرأنا الفاتحة على الآلتين الكاتبتين واحدة تلو الأخرى، وبدأنا نفك طلاسم المكان ونتعرف عليه أكثر.

أما عن المعطف الأبيض ذي البقع، فقد كان ياسيدي المعطف الذي ارتداه عزيز نيسين فور وصوله إلى المستشفى بعد محاولة اغتيال تعرض لها من متطرفين إسلاميين أتراك مطلع التسعينيات قبل سنين من رحيله، كان شديد الاعتزاز ببقع الدم التي سالت على المعطف لأنه كان يراها الثمن الذي يجب أن يدفعه أي كاتب، لم يكن عزيز نيسين كاتبا مجاهرا بالإلحاد أو مسخرا قلمه ضد الإسلام، وإن كان قد سخر كثيرا من نفاق المتدينين ومن السعي لربط الإسلام بالجهل والوقوف ضد العلم والحرية، لكن السبب الرئيسي في اغتياله كان

دفاعه المستميت عن حرية الكاتب البريطاني من أصل هندي سلمان رشدي، إثر تكفير الإمام الخميني له وإصداره فتوى بإهدار دمه عقب إصداره روايته (آيات شيطانية)، كان سلمان رشدي صديقا حميما له،يبدو ذلك من الصور المعلقة لهما بصحبة عدد آخر من الأدباء من بينهم ماركيز بجلالة قدره، وفيما لم ينزف سلمان رشدي قطرة دم واحدة بسبب ما كتبه، وإن كان عاش حياته كلها متخفيا لكي لا يحدث له ذلك، فقد كاد عزيز نيسين يفقد حياته ثمنا لدفاعه عن حرية الإبداع. أعلم أن هذا الموقف سيجلب له عداوة بعض من يقرأ الآن ممن لن يكلف نفسه عناء فهم موقف عزيز نيسين في الدفاع عن كاتب كسلمان رشدي، وهو الموقف الذي كان يجب أن يكون موقفنا جميعا كعرب ومسلمين إبان هوجة آيات شيطانية؛ التي لم تجلب لنا شيئا سوى وصمنا بعار أننا أمة تقف ضد كاتب أعزل لايمتلك إلا قلمه، مع أنه كان ينبغي أن نؤمن أن ديننا أكبر بكثير من أن تهزه رواية أو رسوم أو أفلام أو قصائد، خاصة وقد أدى هجومنا على سلمان رشدي إلى ارتفاع مبيعاته إلى مئات الآلاف من النسخ منذ موقفنا ضده، وأوقن أننا لو كنا قد تركناه يمضي بما كتب لما صورنا أنفسنا للعالم بتلك الصورة المزرية بوصفنا أناسا نقتل من يتطاول على مقدساتنا مع أن ديننا لايأمر بذلك أبدا، بل على العكس يكفل حرية من يكفر به تماما كما يكفل حرية من يؤمن به. والغريب أننا منذ أن افتتحنا بسلمان رشدي مسلسل هوجات الغضب على من يتطاول على مقدساتنا لم يتطور حالنا قيد أنملة، ولم نقترب من ديننا قدر ما ابتعدنا عنه، ولم نزدد إلا تخلفا وفقرا وجهالة، مما يعني أن غضبنا على ديننا إما أنه

لم يكن صادقا بل جاء لتغطية عوراتنا الحقيقية، وإما أنه في أحسن الأحوال كان صادقا لكنه لم يكن في مكانه الصحيح.

على أيّ حال، كنت أظن أن هوس عزيز نيسين بالاقتناء والتجميع قد توقف عند حدود العملات النقدية والورقية لمختلف بلاد العالم التي زارها خلال حياته المديدة، وهي هواية يمكن أن تجد كثيرين يدمنونها، لكنني اكتشفت عند صعودي إلى الدور العلوي من متحفه أنه من الصعب أن تجد مهووسا بالاقتناء مثل عزيز نيسين لا يكتفي بالعملات والطوابع فقط، بل إنه قام بتحويل الدور العلوي من متحفه إلى عدة متاحف في دور واحد، ففي ركن من الدور قام بتجميع لوحات لعدد من أهم وأقدم الرسامين الأتراك، وفي ركن آخر قام بتجميع كل برادات الشاي (جمع براد) التي شرب فيها شايا طيلة عمره، والتي ستكتشف وأنت تطالع تنوع أشكالها وأحجامها وألوانها أنك أمام متحف فريد من نوعه يليق بشارب شاي محترف مثل عزيز نيسين، لم يترك براد شاي شرب فيه إلا واصطحبه معه، سواء كان براد شاي رافقه في السجون المتعددة التي قضى فيها فترات من عمره أو رافقه في المنفى، كذلك البراد الضخم الذي قيل لنا إنه اشتراه خلال نفيه إلى الاتحاد السوفيتي، وإنه كان يصنع فيه كميات كبيرة من الشاي لتدفئه من برد روسيا الزمهرير.

في جزء آخر من المبنى تم جمع كل الصحف التي شارك عزيز نيسين في الكتابة فيها والتي لم أكن أعلم أنها بهذه الضخامة، بحيث ملأت غرفة كاملة بها أكثر من خمسين دولابا ملئت عن آخرها

بالصحف والمجلات، هنا قال لنا صديقه الحميم: إن أغلب ما كتبه عزيز نيسين لم يجمع بعد في كتب، وأنهم ينتظرون اليوم الذي يأتي فيه باحثون متفرغون لجمع كل ماتضمه سطور هذه الصحف والمجلات، والتي تضم مواد كثيرة نشر فيها عزيز مقالات وقصصا له بأسماء مستعارة خلال فترات منعه من الكتابة.

على الحوائط بين كل متحف وآخر هناك صور لعزيز نيسين مع زوجته وأولاده، تزوج الرجل مرتين، قلت لصديقه القديم، وأنا أنظر إلى صورة لعزيز مع زوجته وابنه عليّ: «أعتقد أن زوجته لاتحبه أبدا»، اندهش الرجل بعد ترجمة ما قلته وسألني: «كيف عرفت ذلك؟»،لم أرد أن أقول له إن مشاعر الكراهية تنضح من عيني الست في صورها التي التقطتها بصحبته، فقلت له: «أعرف كتَّابا كثيرين تكرههم زوجاتهم»، نظر إلى زوجتي فقلت له: « أقصد كتَّابا غيري»، وضحكنا من قلوبنا، قبل أن يقول لي الشاب الذي تولى مهمة الترجمة لنا، وهو يخفض صوته لكي لايسمعه رفيق عزيز نيسين: إن زوجة عزيز وأبناءه باستثناء عليّ لا يحبونه لأسباب كثيرة من أهمها: أنه قرر أن يتبرع بأغلب عوائد كتبه يوم أن كان الأكثر مبيعا في تركيا لكي ينشئ وقفه المخصص للأيتام والمجهولي النسب، قلت له: «لا داعي لأن تقول لي باقي الأسباب فيمكن اكتشافها بسهولة من كتبه.. كاتب قضى عمرا بين السجون والمنافي لأنه قرر أن يعيش الحياة كما يريدها هو لا كما يريد الآخرين، وألا يسكت قلمه ولو للحظة فأتعبه قلمه وأتعب من معه»، هز صديقنا رأسه معبرا لي عن أنه كان يتمنى أن يكون عزيز نيسين حيا لكي يرى كيف وصل أدبه إلى ماهو أبعد من تركيا بكثير.

كنا قد وصلنا إلى نهاية الدور العلوي الذي وضع فيه عزيز نيسين متحفا يعبر عن جزء آخر من شخصيته، متحفا لجميع زجاجات الخمور الموجودة في العالم على اختلاف أنواعها واشكالها وأحجامها، أحضرها من كل بلاد العالم من روسيا إلى الأرجنتين ومن أفريقيا إلى الصين. قالت لي زوجتي ضاحكة: من دمائه التي سالت بسبب سلمان رشدي إلى متحف زجاجات الخمور، يبدو أنك وقد قررت أن تنصف الرجل ستدمر سمعته في العالم العربي بما كتبته عن الرجل. ضحكت وأنا أقول لها: «لست مستعدا لأن أقول إنني وجدت لدى الرجل متحفا لسجادات الصلاة والسِّبَح لكي أحبب الناس فيه.. فالذي يحب الرجل سيحبه من خلال أدبه وكفى»، لكن كلامها اتضح فيما بعد كم هو حقيقي ومؤسف، فنحن نعيش في أيام ليس لدى أحد فيها استعداد لكي يعرف أنه يمكن أن أعجب بتراث أدبي تركه كاتب دون أن أكون مضطرا لقبول معتقداته وأخلاقه، فضلا عن محاكمة معتقداته وأخلاقه والحكم عليه من خلالها، اكتشفت ذلك فيما بعد للأسف عندما دخلت إلى أكثر من موقع إنترنت عربي كتب عن الرجل، ودائما ما كنت أجد في التعليقات إشارات ساخطة إلى موقفه المتضامن مع سلمان رشدي، دون أن يفكر أحد في دوافع هذا الموقف ولا في إمكانية أن يختلف أناس آخرون معنا في الرأي فنتفهم اختلافهم ونحتفظ باحترامنا لإبداعهم.

سألت عن المكان الذي يمكن أن ألتقي فيه بعليّ الابن الأكبر لعزيز ووكيل ورثته لكي نناقش تفاصيل المشروع الذي أحلم به، وهو تحويل إحدى روايات الكاتب الكبير إلى مسلسل تلفزيوني،

فقاموا بإعطائي العنوان، وعرفت منهم أنه الوحيد الذي ورث عن والده عشق الكتابة، سألت شغوفا عن كتبه: وهل ترجمت إلى غير التركية؟ فضحك الشاب وقال لي: إنها لن تترجم أبدا، عندما سألت عن السر قال لي ببساطة: إنه يكتب كتب تسالي من تلك التي تختلط فيها الكلمات المتقاطعة بالألغاز الحسابية التي تساعد طلبة المدارس على إتقان الرياضيات، ضحكت وقلت له: من خلال كثرة ما قرأته من كتب لعزيز نيسين أستطيع أن أدرك أنه لم يترك شيئا لكي يكتبه أولاده من بعده. (في عام ٢٠١٢ وبعد سبع سنوات من زيارتي الأولى، وجدت في مكتبات إسطنبول كتابا ضخما من جزأين يتضمن الرسائل المتبادلة بين عزيز وابنه عليّ عندما كان عليّ يدرس في الولايات المتحدة، اشتريت الكتاب وكتابا آخر يحكي فيه عزيز عن رحلته إلى مصر وسوريا على أمل أن أجد ناشرا يتحمس لنشرهما ذات يوم باللغة العربية، لكني لم أوفق في ذلك، خاصة أن حركة ترجمة الكتب التركية إلى العربية تضاءلت بعد الأوضاع المؤسفة التي عاشتها سوريا خلال العامين الماضيين، والتي قضت على نشاط عدد من أبرز دور النشر السورية).

عند محطة الحديث عن روايات عزيز نيسين التي أفضت في ذكر ما أعجبني منها، انتبه صديق عزيز ورفيقه إلى كلامي ليقترب منّي ويسألني بجدية عن عدد الكتب التي قرأتها له، ولم يصدق عندما قلت له إن عددها يقارب الخمسة والخمسين كتابا، أشار لي إلى الكتاب الوحيد بالعربية الموجود في المكان وقال لي إنه الوحيد الذي حصل على ترخيص بالنشر من الورثة، توتر الجو قليلا، ثم توتر أكثر عندما

عاد ليطلب مني أن أعطيه أسماء دور النشر التي صدرت عنها الكتب، تصنعت ضعف الذاكرة لكي لا أوقع أصحاب تلك الدور في مشاكل، فقد كنت مَدينا لهم بما قرأته للرجل، وهو ديْن كانوا يستحقون أن أتواطأ معهم من أجله ولو مؤقتا. أفتح قوسا هنا لأقول: إنني في زيارة لدمشق خلال عام ٢٠٠٦ التقيت بصاحب دار الأهالي للنشر، التي أصبح اسمها فيما بعد دار الوطنية الجديدة للنشر والذي كان أول من نشر كتبا مترجمة لعزيز نيسين، كما أنه أكثر من أصدر له كتبا مترجمة أيضا، فنقلت له مداعبا مادار بيني وبين ورثة عزيز نيسين، ففاجأني بقوله: إن عزيز نيسين عندما زار سوريا في منتصف الثمانينيات أعطاهم إذنا كتابيا بترجمة كتبه إلى العربية ونشرها حبا منه للقارئ العربي، وقال لي إنه يحتفظ بهذا الإذن لديه، وعندما سألته عن الحقوق التي يستحقها ورثته، قال لي آسفا: إن عزيز نيسين لم يعد موضة كما كان في السابق، ولم تعد كتبه تبيع بنفس القدر، ربما لأنه شبه مجهول في أسواق واسعة للكتاب مثل مصر ودول الخليج العربي والمغرب العربي، وربما لأن سوق القراءة المحدود بحكم عدد السكان في سوريا ولبنان قد تشبع من كتبه، كما شكا لي من بعض المترجمين الذين لم يعودوا يهتمون حتى بتصحيح كتب الرجل بعد ترجمتها، ووجدوا أصحاب دور نشر جديدة ينشرون لهم كل مايحمل اسم الرجل حتى لو كان مكررا أو سيئ الترجمة.

للأسف لم يترجم كل ماكتبه عزيز نيسين إلى العربية، ربما ماترجم من كتبه الشرعية أقل من النصف، فخلال السنوات العشرة الماضية جمعت له من مكتبات سوريا ولبنان والأردن ومصر ما يقترب من

الخمسة والخمسين كتابا فقط، بعضها للأسف به قصص مكررة في أكثر من كتاب، أحيانا لأن أكثر من مترجم ترجم له نفس القصة وأصدرها في كتاب مختلف، وأحيانا لأن بعض الناشرين يقوم بالتواطؤ مع المترجم بحيلة لخداع القارئ بإصدار نفس العمل في كتاب مختلف بعنوان آخر على سبيل المثال رواية (ملك الكرة) التي صدرت منذ أشهر بعنوان آخر هو (دعها إنها راشدة) لنفس المترجم الذي ترجمها في المرة الأولى وهو مترجم سوري اسمه هاشم حمادي. بالمناسبة حتى الآن كل من نشروا كتبا لعزيز نيسين باللغة العربية أو ترجموه إلى العربية هم سوريون من أبرزهم: أحمد الإبراهيم وجمال دورمش ومحمد مولود فاقي وعبد القادر عبد اللي وهاشم حمادي وفيصل نور وفاروق مصطفى وبكر صدقي والمخرج السينمائي عبد اللطيف عبد الحميد. بالطبع ليس غريبا ذلك الانفراد السوري بترجمة عزيز نيسين وغيره من أدباء تركيا الكبار أمثال يشار كمال وأورهان باموق وناظم حكمت ومظفر أزغو ونديم جوجول، فبين تركيا وسوريا روابط ثقافية وسياسية متينة ومعقدة وملتبسة في نفس الوقت، لست الأقدر على شرحها، لكنني فقط أشير إلى ملاحظة لمستها خلال زيارتي إلى تركيا هي انتشار التحدث باللغة العربية بلهجتها الشامية بين أبناء جنوب غربي تركيا، والذين لاحظت أن أغلبهم يعمل في المدن التركية الكبرى في المطاعم والمقاهي حيث تتم الاستعانة بهم لجذب السياح العرب، الذين أصبحت تركيا في السنين الماضية بالنسبة لهم أكبر مناطق الجذب السياحي لأسباب متعددة تتنوع بين الطبيعة الخلابة والفساد المتاح.

وبرغم أن المترجمين والناشرين السوريين لعبوا دورا عظيما في تعريف القارئ العربي بعزيز نيسين وأدبه إلا أن بعضهم تعاملوا معه بمنطق تجاري بحت دون ترجمته بذمة وضمير، فجاءت بعض كتبه سيئة الترجمة ونفرت منه القارئ العربي، بالطبع لاأجيد التركية لأحكم على هذه الترجمات، لكن قراءتي عن عزيز نيسين وأدبه فسرت لي سر تفكك بعض ترجمات رواياته وقصصه، فقد كان يستخدم اللهجات العامية المختلفة في تركيا عندما كان يكتب عن بعض البيئات الشعبية المحلية خصوصا الريفية منها، وهو ماكان يتطلب مترجما من نوع خاص ينقل روح النص لايترجمه ترجمة حرفية تنفر القارئ منه. وربما زاد الطين بلة أن أغلب الترجمات التي صدرت لعزيز نيسين لم تخضع لأي مراجعة أو تنسيق أو تنقيح لأنها كانت دائما اجتهادا شخصيا من الناشرين والمترجمين خاصة وسوريا لاتعترف بشيء اسمه حقوق الملكية الفكرية، ربما في ظل شعار (وحدة. حرية. اشتراكية) الذي يملأ جميع الحوائط بما فيها حوائط السجون، وبالنسبة للناشرين هناك يعتبر عزيز نيسين لقطة من حيث غزارة إنتاجه وكونه يكتب قصصا ساخرة، وهو فرع من الأدب يعتبر الأكثر رواجا لدى القارئ العربي، فضلا عن كون عزيز نيسين يكتب عن المجتمع التركي طيلة القرن العشرين، والذي يكاد يكون نسخة من المجتمعات العربية بكل أمراضه وعيوبه التي نقل الأتراك خلال الحكم العثماني إلينا كثيرا منها، قبل أن يتعافوا منها إلى حد كبير خلال العشرين عاما الماضية؛ ولعل ذلك كان أبرز ماشدني إلى عالم عزيز نيسين عند قراءاتي الأولى لبعض قصصه ورواياته، فلم أكن أتخيل

أنني سأجد في أدبه ذلك التشابه المذهل بين الأوضاع السلبية التي يسخر منها على كل المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية بل والصحفية والكروية، وبين أوضاعنا المزرية التي نعاني منها في مصر وسوريا وأغلب البلاد العربية التي ابتليت بالحكم العثماني. ليست هذه إدانة للحكم العثماني فهو أكبر من أن يختزل في سطور أو حتى في كتب، لكنها مجرد ملاحظة أراها مهمة لكل من دخل إلى عالم عزيز نيسين السحري.

بمناسبة غزارة إنتاج عزيز نيسين المرعبة أود أن أقول للقارئ الكريم - إذا كان يحبني - إنني أتشرف بأنه عندما يسألني أحد في حوار صحفي أو إيميل أو لقاء عام عن سر غزارتي في الإنتاج، أستشهد عادة بسيرة حياة عزيز نيسين مع الفارق الرهيب في المستوى الذي أتمنى أن يساعدني الزمن على تقليصه، وربما لم أجد كاتبا في حياتي أتمكن من الاستشهاد به في أمور كثيرة في حياتي قدر عزيز نيسين، وربما لذلك أنصحك بقراءة سيرة حياته التي نشرها في جزأين بترجمة محمد مولود فاقي، فلعلك تحبه مثلي أو تكرهنا نحن الاثنين. عندما قرأت مذكرات نيسين فوجئت أنه يتبع لإدارة حياته ووقته طريقة أتبعها منذ عشت تجربة البطالة المتقطعة بعد مصادرة الدستور الأولى عام ٩٨، وكان أصدقائي يصفونها بأنها خلطة سرية عجيبة تجمع بين العشوائية والتخطيط والعمل الجاد والفوضى، حيث كنت ألزم نفسي بكتابة خطة شهرية لما يجب أن أقرأه وأكتبه كل شهر، ثم أحاسب نفسي في آخر الشهر عليه، عادة كنت أنفذ ثلث ما خططت له وأحيانا ربعه، لكن ذلك لم يكن ليحبطني أبدا، بل إنني عندما كانت تجبرني

الظروف على عدم تنفيذ عُشره حتى لم أتوقف أبدا عن عمل هذه الخطة الشهرية التي أحاسب نفسي عليها سنويا، ومع مرور الوقت اكتشفت أنها ساعدتني على زيادة إنتاجي وتنظيم وقتي والاستفادة منه بشكل لم أكن أتخيله، كانت خطة عشوائية بالنسبة لي حاولت أن ألزم نفسي فيها باتباع منهج نجيب محفوظ الصارم في الحياة، لكنني عندما فشلت في اتباعه حولته إلى منهج خاص يجمع بين العشوائية والتخطيط، وبعد سنوات من ذلك فوجئت أن عزيز نيسين سبقني من زمااان إلى تلك الخلطة التي مكنته من أن يعيش حياة حافلة بالتجارب الإنسانية ويترك خلفه إنجازا صحفيا وأدبيا وفنيا عريضا، ربنا يوعدني.

وقبل أن تتعجلني وتسألني عن مقادير تلك الخلطة دعني أحيلك إلى مقدمة الجزء الثاني من مذكرات عزيز نيسين والتي حملت عنوان «وهكذا سرنا»، حيث يحكي طريقته في إدارة حياته قائلا: «كل ليلة يجب أن أدون الأعمال التي سأقوم بها يوم الغد على ورقة، إذا لم تكن كل ليلة فلتكن كل ليلتين أو ثلاث، أكتب في أعلى الورقة أعمال الغد وأضع خطا تحتها، وبما أن يدي مفتوحة فتستطيع أن تقول بأنني مسرف من جهة، ومن جهة أخرى أتصرف بدقة، وتستطيع أن تقول إنني بخيل، وبما أنني هكذا فأنا لم أتلف الأوراق المكتوب عليها أعمال الغد وأجمعها على شكل قصاصات صغيرة، كما أنني أحتفظ بالأعمال التي سأقوم بها في شهر وسنة، وهكذا كنت أقوم بتخطيط يومي وشهري وسنوي على هذه القصاصات الصغيرة. قديما كنت أمزق هذه الأوراق وأرميها، ثم بدأت أنسى إتلافها وإلقاءها في سلة المهملات وبقيت مرمية في إحدى الزوايا، وعندما وجدتها بعد مرور

سنين طويلة، رأيت فيها أشياء كثيرة جذبت انتباهي، وجدتها غريبة حقا، لقد حظيت عباراتها بأهمية كبيرة عندي وصارت لها قيمة تاريخية وأثرية رائعة، وجدت في هذه الكتابات نفسي. وهكذا بدأت أحتفظ بتلك الأوراق اليومية والشهرية والسنوية، لم أعد أرميها بل أخذت أجمعها ضمن ملف خاص، وعندما أعود إليها بين حين وآخر، أجد في تلك الكتابات أيامي الماضية والقادمة، فهي عبارة عن وثائق تربط ماضيَّ بحاضري ومستقبلي، أنظر إلى «الأعمال التي سأنفذها غدا» فلاأتذكر، أكثرها أصبح منسيا، وبعض الأعمال التي لم تنفذ أيضا بقيت على حالها، كنت أتركها إلى الغد ثم إلى مابعد الغد، وهكذا عندما أفكر بها أحس بحزن شديد. ستظل هذه الكتابات حاضرة في ذهني، أحفظها للأيام القادمة التي لن أكون فيها، الأيام القادمة الخالية من وجودي، سأترك في هذه الأوراق المكتوبة ذكريات لحياتي. لقد أصبحت مديونا للغد وما بعد الغد وللأيام القادمة الأخرى ليس بسبب كسلي وإهمالي بل من ثقل الأحمال التي فوق ظهري وكثرة المسئوليات والطلبات، إنه ديْن لا ينتهي، ديْن سأشعر به دائما.. فما معنى أن يظل الإنسان مَدينا للأيام القادمة؟ في هذه الحالة يكون مرغما على العيش كي يرد دينه الذي لايرد أبدا وسيزداد أكثر. في ذلك الصباح الذي لن أكون موجودا فيه، سيجدون أوراقا صغيرة، «الأعمال التي يجب أن أقوم بها» لم تنفذ كلها، الشيء الباقي مني هو أنا.. ملفات ملأى بالأوراق. أمامي الآن ملف بأعمال الغد، سأختار منه ورقة وأقرأها لكم: حلاقة.. فطور.. العناوين.. تنظيف طاولتي أو مكتبي.. سقاية الأزهار.. شراء دفتر طوابع لأحمد.. البريد.. جلب

أكل للقطط.. كتب رفيق خالد.. أستلم نقودا من كوفلو.. إعطاء قصة لمجلة أف بابا.. تصحيح رواية (زوبك)ـ اسم واحدة من أجمل رواياته، تحولت إلى مسلسل سوري لعب بطولته دريد لحام ـ.. كتابة مسرحية من فصل واحد». كل غد أراه قريبا.. لم أكن أعطي لهذه الأوراق أهمية بحيث إنني لم أضع عليها تواريخ، فنحن لانستطيع أن نعرف مسبقا ونحن نعيش أي الأشياء التي تركناها تملك أهمية أو لاتمتلك.. كل ورقة فيها عنوان أو ظرف أو ورقة ملاحظة أو حساب بقال تأخذ من القيمة والأهمية مع مرور الزمن».

كل هذه السطور المليئة بالشجن والمرارة كتبها عزيز نيسين في بداية الجزء الثاني من سيرته الذاتية ليبرر للقارئ لماذا تأخر في كتابة ونشر هذا الجزء، برغم أنه أنهى الجزء الأول من سيرته في عام ١٩٦٥ وخطط لكي يبدأ في الجزء الثاني مباشرة؛ لكنه نسيه لمدة سبع سنوات كاملة بدأ بعدها كتابة الجزء الثاني من سيرته الذاتية ليصدر بعد عشر سنوات كاملة من صدور الجزء الأول، والمثير للإعجاب أنه نسي ليس كسلا أو إهمالا بل لأنه انشغل في كتابة عشرات الروايات والقصص وإصدار صحف ومجلات عديدة فضلا عن النفي والاعتقال وممارسة العمل السياسي السري والعلني، لكن سيرته الذاتية بعد أن صدرت وجدت من التقدير ماتستحقه، حتى أنها اختيرت على مستوى العالم ضمن أهم الكتب التي يجب أن يقرأها أي مهتم بالأدب التركي، انظر كتاب (دليل القارئ إلى الثقافة الجادة) الذي ترجمه الأستاذ أحمد عمر شاهين وصدر عن المجلس الأعلى للثقافة في منتصف التسعينيات من القرن الماضي والذي أشار إلى سيرة عزيز نيسين باسم طفل إسطنبول.

لا يزال لديّ الكثير لأحدثك به عن عزيز نيسين وأدبه، وهو حديث أتمنى أن يسعفني الوقت لإنجازه ذات يوم في كتاب أؤدي فيه بعضا مما أدين به لهذا الأديب الكبير، لكنني لايمكن أن أختم حديثي دون أن أرشح لك بعضا من أهم وأجمل ماكتبه الأديب الكبير وترجمه إلى العربية، تحضرني في البداية روايته الأجمل (الطريق الوحيد) التي كانت أول ماقرأته له وهي صادرة عن دار المدى العراقية، هناك أيضا رواية (سرنامه) الصادرة عن دار ورد، ومجموعة (الكرسي) التي ترجمها فيصل نور، وتضم عددا من أجمل قصص عزيز نيسين التي صدرت بترجمات أقل تميزا في مجموعات أخرى، كما أن هناك مجموعتين رائعتين يمكن أن تجدهما في جناح وزارة الثقافة السورية في معرض القاهرة للكتاب عنوانهما (كيف قمنا بالثورة) و(غاز الشرف الأخضر). فضلا عن مجموعات متعاقبة أصدرتها دار الطليعة الجديدة في سوريا من أهمها (صحوة الناس، المجانين الهاربون، مجنون على السطح، آلة سريعة العطب). تريد المزيد؟ طيب اقرأ دول الأول، ثم يجمعنا المزيد من الحديث عن عزيز نيسين يوما ما، لكن لاتنس إذا قرأت له مايمتعك أن تدعو له و«بالمرة تدعي لي».

اللهمّ استجب.

لكي لا تنسانا الكتب!

الذين يملكون مكتبات تفيض أرففها بالكتب سيعني لهم هذا الكلام كثيرا حتى لو لم يكن عدد أرفف مكتبتهم كثيرا.

بين المكتبات وأصحابها جدل حاد برغم صمته، مرير برغم حرارته، يوما ما ستقف أمام مادفعت فيه دم قلبك من كتب لتسأل نفسك هل سيأتي اليوم الذي تنهي فيه قراءة كل هذه الكتب؟ قبل أن تجيب ستباغتك نفسك بسؤال ألعن وأضل «هل تتذكر أساسا ماقرأته من كتب لكي يشغلك همٌّ مالم تقرأه؟؟»، سؤال مضني ممض مرير موجع، كنت أظن أنني وحدي الذي أعاني من وطأته، معتقدا أنني دون غيري أحمل ذاكرة رديئة التجميع لاتنشط إلا في النسيان، نسيان الكتب التي لم أرد يوما أن أنساها. ثم كان الله رحيما بي فأرسل إليَّ من يشاركني همِّي، الكاتب الألماني العظيم باتريك زوسكيند، طبطب على ذاكرتي وقال لي بالألمانية المترجمة إلى الفصحى «لست وحدك».

الحكاية كلها بدأت بفضل ناشر مخادع أو حسن النية ربما، قرر أن يصدر لزوسكيند كتابا جديدا مترجما إلى العربية اختار له اسم «ثلاث

حكايات وملاحظة تأملية»، «لا أسطيع» مع زوسكيند صبرا، ولذلك بدأت في قراءة كتابه فور خروجي من المكتبة، الحكاية الأولى في الكتاب لم تكن غريبة عليَّ، قرأتها يا رب، لكن أين ومتى، لا أتذكر، الحكاية الثانية كذلك، والثالثة شرحه، هل أعيش تجربة يتهيأ لي فيها أنني أعيش ماسبق لي أن عشته، لست بحاجة إلى مزيد من الاضطراب، أفزع نحو كتابين أمتلكهما للرجل، ترجمهما عمّنا الكبير القدير طلعت الشايب، لأجد القصص الثلاثة مترجمة بشكل أفضل ولكن بعناوين أخرى، أراحني ذلك قليلا، حتى داهمني من جديد همٌّ نسيان الكتب في هذه السن التي تبدو مبكرة، لكن ربما لأنني أثق يقينا في أن الله ماخلق من داء إلا وله دواء، وجدت دوائي في الفصل الأخير من كتاب زوسكيند الذي حمل ملاحظة تأملية بعنوان «فقدان الذاكرة الأدبية»، كتبها زوسكيند بعد أن سألوه يوما ما عن الكتاب الذي أثر فيه وحدد خط حياته وأخرجه عن مساره، بأسلوب رائع وساخر يبدأ زوسكيند في استعراض السؤال بطريقة توحي وجود فجوات في ذاكرته منذ البداية، فيبدأ مقاله بعبارة هي «ماذا كان السؤال؟»، ثم يفترض فورا أن السؤال لايتعلق بتجربة القراءة العصابية المحبطة بل يدور حول قراءة التجارب الفنية التي تهز البدن، يحاول بعدها تذكر بيت ورد في قصيدة شهيرة نسي اسمها، وأخذ في محاولة تذكرها وتذكر من قالها، ثم يعترف بأنه لم يعد يتذكر من القصيدة سوى السطر الأخير المحفور في ذاكرته كإملاء معنوي لاتمحوه الأيام، سطر يقول «عليك تغيير حياتك».

يروي زوسكيند كيف قرر أن يجد إجابة للسؤال الذي تلقاه بالتقدم إلى مكتبته لينقل نظراته على ظهرها، وتتوه عينه في كثرتها، شعر

بالدوخة فمد يده على غير هدى إلى رفوف المكتبة، وأخذ كتابا بشكل عشوائي ليفتحه ويشغل نفسه بقراءته، على الفور لاحظ أن اختياره كان عالي التوفيق، لأنه اختار كتابا مليئا بأجمل المفاجآت به أفكار جلية ومعلومات غير معروفة حتى الآن، تحول إلى كتلة من الجشع المركز على النفيس الجديد الذي يكتشفه في الكتاب، لم تزعجه الخطوط تحت السطور أو إشارات التعجب التي تملأ الكتاب، مع أنه يمقت وجود هذه الآثار في الكتب، يلاحظ أن القارئ السابق للكتاب وضع خطوطه وملاحظاته في نفس المواضع التي أثارت اهتمام زوسكيند نفسه، يتابع القراءة مستمتعا ومندهشا من الطريق الرائع الذي يقوده إليه الكاتب، حتى يصل إلى مكان يكون قمة في التألق ينتزع منه صيحة إعجاب، يغمض عينه لحظة ليتأمل ما قرأه، ثم تمتد يده إلى القلم الرصاص مقررا أن يضع خطا تحت ما أقرأه ويكتب على طرف الصفحة جيد جدا ويدون بعض الملاحظات على ما قرأه، عندما ينزل بقلم الرصاص على الصفحة ليشخبط كلمة جيد جدا يفاجأ أنها موجودة فعلا، وأن القارئ السابق كتب خلاصة النقاط الرئيسية التي يود تدوينها وكتبها بخط يد يعرفه جيدا، هو خط زوسكيند نفسه، وأن القارئ السابق ليس إلا هو، وأنه كان قد قرأ الكتاب منذ زمن بعيد.

عندها يصف زوسكيند مشاعره قائلا في كتابة بديعة يصعب أن تنساها، أو هكذا يخيل لك وقت أن تقرأها: «هنا أشعر بانقباض مجهول، لقد استولى عليَّ المرض القديم من جديد، فقدان الذاكرة الأدبية، الفقدان الكلي، وتغمرني موجة من الاستسلام للقدر لأتساءل عن جدوى كل السعي إلى المعرفة، السعي عموما، لماذا نقرأ إذن،

لماذا أقرأ مثلا هذا الكتاب من جديد، إذا كنت أعرف أني لن أتذكر منه أي شيء على الإطلاق بعد قليل، لماذا أفعل شيئا على الإطلاق، إذا كان كل شيء سيضيع، لماذا أعيش إذا كنت سأموت، أغلق الكتاب الجميل، أنهض وأتوجه إلى رفوف المكتبة كالمنهار، كالمعذب، وأدس الكتاب بين صفوف المجلدات الأخرى المجهولة، الشاملة والمنسية. يبقى نظري معلقا على حافة الرف. ماذا أرى هنا؟ آها، نعم، نعم، ٣ كتب عن سيرة حياة إلكسندر الكبير، لقد قرأتها كلها ذات مرة، وماذا أعرف عن إلكسندر الكبير، لا شيء. على طرف الرف أرى ثلاث موسوعات عن حرب الثلاثين عاما... قرأتها كلها برضا وماذا أعرف عن حرب الثلاثين عاما؟ لا شيء، صف الرفوف تحته مملوء من أوله إلى آخره بكتب عن لودفيغ الثاني، لم أكتف فقط بقراءتها، بل فلحت فيها فلاحة أكثر من عام وكتبت عنها ٣ سيناريوهات، كنت تقريبا خبيرا في لودفيغ الثاني، ما الذي أعرفه الآن عن لودفيغ الثاني وعهده؟ لا شيء، لا شيء على الإطلاق، أواسي النفس، حسنا، قد يمكن تحمل فقدان الذاكرة الكلي فيما يتعلق بلودفيغ الثاني، لكن ماذا بشأن تلك الكتب هناك، جانب المكتب، في أجمل الأقسام، القسم الأدبي، ما الذي بقي من تلك الـ ١٥ مجلدا لأندريشكاسيتي، لاشيء، ماذا بقي من هاينريش بول، فالزر، كوبن، لاشيء. من مجلدات هاندكه العشرة، أقل من لاشيء.... هنا كوميديا شكسبير، قرأتها كلها العام الفائت، لابد أن شيئا منها علق في الذاكرة، معلومة ثانوية؟ عنوان واحد؟ لاشيء. لكن بحق السماء، على الأقل غوته، مثلا هناك هذا المجلد الأبيض «الألفة الاختيارية»، قرأته ثلاث مرات على الأقل

وليس لديّ أي علم عنه، كأنما ذهب مع الريح، ألا يوجد كتاب واحد في العالم أستطيع تذكره؟ هذان المجلدان الحمراوان هناك، إنهما يبدوان لي معروفين جدا، كقطع أثاث قديم، لقد قرأتهما، عشت في هذين المجلدين أسابيع طويلة، ليس منذ زمن بعيد جدا، ماهذا، ماكان اسمه؟ «الشياطين»، آه، مهم. والمؤلف؟ ف.م. دوستويفسكي، آه، نعم. يبدو لي أن عندي ذكرى غامضة عنه، تجري الأحداث في القرن التاسع عشر وفي المجلد الثاني يطلق أحدهم النار على نفسه من مسدس. ليس لديّ المزيد لأقوله عنه.

أجلس على كرسي مكتبي. عار. فضيحة. أستطيع القراءة منذ ثلاثين عاما وقرأت، إن لم يكن الكثير، إلا أني قرأت بعض الكتب وكل ماتبقى لي منها ذكرى ضعيفة جدا، عن شخص ما يطلق النار على نفسه من مسدس في المجلد الثاني من رواية يبلغ عدد صفحاتها الألف. هل قرأت ثلاثين عاما عبثا. آلاف ساعات طفولتي، شبابي وكهولتي أمضيتها في القراءة ولم أحتفظ منها إلا بنسيان شامل، ولو أن هذه الكارثة تضمحل، لاعلى العكس إنها تسوء، إذا قرأت اليوم كتابا أنسى بدايته قبل أن أصل إلى نهايته. أحيانا لاتكفي قوة الذاكرة لمتابعة مطالعة صفحة واحدة، وهكذا تطلع روحي فقرة فقرة، جملة جملة، وقريبا سأصل إلى حد لا أفطن فيه بوعي إلا على الكاميرات المفردة التي تتدفق من ظلام نص يزداد غرابة عليّ، تتوهج في لحظة القراءة كمذنبات لتهوي للحال في تيار نهر النسيان المعتم. لاأتمكن منذ زمن بعيد من فتح فمي أثناء النقاشات الأدبية دون أن يسود وجهي

بأن أخلط بين بيكيت مع جويس، بودلير مع شوبان، جورج صاند مع مدام دي ستايل.. وهكذا، إذا أردت البحث عن جملة تخطر على بالي أقضي أياما في البحث لأني نسيت اسم الكاتب ولأني أتيه أثناء البحث في بحار نصوص لكتّاب غريبين كل الغرابة، حتى أنسى بالنهاية ما الذي كنت أبحث عنه. كيف أسمح لنفسي في هكذا حالة نفسية مشتتة بالجواب على السؤال ماهو الكتاب الذي غير حياتي؟ ولا واحد منها، كلها؟ بعضها؟ لا أعرف.

لكن، ربما، أفكر هكذا لأواسي نفسي، ربما لم يكن أمر القراءة (كما مع الحياة) مع التغيرات الفجائية على كل هذا العمق، ربما كانت القراءة بالدرجة الأولى عملية تشرب، رغم أن الوعي يغرق فيها كليا، إلا أنه يغرق بطريقة غير ملحوظة، بحيث لا تدرك العملية. إذن فالقارئ المصاب بفقدان الذاكرة الأدبية يتغير بفعل المطالعة بالتأكيد، لكنه لايلاحظ، لأن الجهات المختصة بالنقد في دماغه تتغير أيضا أثناء القراءة وهي التي تستطيع أن تقول له إنه تغير أم لا، وبالنسبة لشخص يكتب فقد يكون هذا المرض نعمة، بل وتقريبا شرطا لابد منه، يحفظه من الهيبة التي تصيبه بالشلل تجاه كل عمل أدبي عظيم، ويمنحه علاقة غير معقدة أبدا مع الانتحال الذي لا يمكن نشوء شيء حقيقي في الكتابة دونه.

أعرف، هذه مواساة ولدتها الضرورة، مواساة نتنة ومشينة وأحاول التخلص من وصمة عارها، عليك ألا تستسلم لفقدان الذاكرة المهول هذا، عليك أن تصمد بكل قوة في وجه سيل نهر النسيان، عليك

ألا تغرق كليا في نص ما، بل عليك أن ترتفع فوقه بوعي واضح، ناقد، عليك أن تستخلص منه أفكارا، أن تدون مايذكرك به، أن تقوم بتدريب الذاكرة، وبكلمة، وهنا أقتبس من قصيدة مشهورة، سقط اسمها واسم مؤلفها من ذاكرتي في هذه اللحظة، لكن سطرها الأخير محفور في ذاكرتي كإملاء معنوي دائم لاتمحوه الأيام، جاء فيه: «عليك أن.. عليك أن.. عليك... آه، مصيبة، الآن نسيت الكلمات، لكن ليس هذا موضوعنا، فمعناها حاضر لي فعلا، كان معناها تقريبا عليك تغيير حياتك».

انتهى مقال زوسكيند البديع، بقي عليك الآن أن تنظر إلى أرفف مكتبتك بعين جسورة لاتخشى الفقد. فقد الذاكرة الأدبية. فحتما سيرد الله عليك ضالتك، فقط إذا قررت يوما أن تغير حياتك.

المستبد الذي بداخلنا!

تبدأ الاختلافات في الرأي في أوطاننا عادة بترديد ببغائي للعبارة «الاستامبة» (الخلاف في الرأي لايفسد للود قضية)، وتنتهي بالبحث عن أقرب محامٍ ليرفع قضية سب وقذف على شركاء الود الذي لفظ أنفاسه الأخيرة بعد أن دهسه اختلاف عابر.

كل الذين خسرتهم في حياتي كانوا أصدقاء قريبين إلى القلب، طبعا، وهل يخسر الإنسان شخصا غير قريب إلى قلبه، كلهم كانوا مؤمنين مثلي بالحرية والديمقراطية والاختلاف في الرأي، وكلهم كانوا يرددون مثلي تلك العبارة التي صرت كلما سمعتها تطيرت وبدأت أستعد لقراءة الفاتحة على الود. أكيد ياما حصل ذلك معك كما حصل معي. أحيانا أعمل مع صديق على مشروع ما فنعيش أياما من الود الصافي ترفرف قلوبنا في ظلها، نقول لبعضنا وعن بعضنا أشعارا تستوجب مسك الخشب وتعليق الخرز الأزرق، وعندما نختلف كما هي سنة الحياة ويعتذر أحدنا عن استكمال العمل مع الآخر، نتحول نحن الاثنين فجأة إلى شياطين تستأهل الحرق، وتظهر فجأة فينا كل

عيوب الدنيا، ونلعن سويا الأيام التي عرفنا بعضنا فيها، إذا تقابلنا في مكان ما سارعنا في البحث عن باب للخروج بعد أن كنا نندفع نحو أحضان بعضنا البعض، وإذا جاءت سيرة أحد منا في محفل ما لوى الواحد منا بوزه ولم يترك في الآخر نقيصة إلا وأحصاها مع أننا دائما نبدأ كلامنا بالعبارة الاستامبة الأخرى « بلاش نتكلم في سيرة الناس ربنا يسهل له.. تخيل إن الحيوان ده...»، وهلمّ ذما وقدحا وطعنا.

لي أصدقاء أعلم أنهم يكرهون الطغيان والاستبداد كراهية التحريم، لكنهم عندما يتعرضون للانتقاد ينفتح قفص طغاة صغار من داخلهم لينقضوا عليك بمناقيرهم، ولأني أحبهم أضحك كثيرا عندما أجدهم يصفون من ينتقدهم بأنه « شتَّام» ويصفون انتقاداته بأنها شتائم، أضحك لا سخرية منهم بل لأنهم لم يقنعوني أبدا وهم يعيشون في دور قافلة تسير والكلاب تنبح، ويرددون نفس الكلام الذي يردده المستبدون الذين يتعاملون مع المعارضة على أنها قضية شخصية، ومع الآراء على أنها سهام تهدف للنيل من أشخاصهم.

كثيرا ما أسمع هذه الجملة من فنان أو مثقف أو شخصية عامة «فلان شتمني»، أستفظع الأمر وأعود لما كتبه فلان فأجده نقدا عاديا أو حادا أو سخيفا أو قاسيا بعشم أو قاسيا بِغِلّ، لكنني لا أجد أبدا فيما كتبه شتيمة، فأعود لصاحب الشأن لأتأكد مما إذا كان قد قرأ ما كتب عنه أو نقل إليه، والمؤسف أنني أجده غالبا قرأ ما كتب عنه لكنه اعتبره شتيمة لانقدا. ما أعرفه أن الشتيمة هي أن تصف شخصا بأنه طويل وأهبل أو تخين فشلّة أو ابن كلب أو حقير أو سافل أو واطي، يعني لن أستعرض لك قاموس الشتائم لكي تفهم قصدي، باختصار الشتيمة كما يقول القانون هي تلك الكلمات التي لو نسبت إليك لأوجبت

احتقارك لدى أهل وطنك، وضع تحت كلمة «احتقارك» ألف خط، أو اكتف بخط واحد إذا لم يكن لديك وقت، صحيح أننا أحيانا تختل الموازين لدينا فنتخيل أن الأشطر في الاختلاف هو الذي يقوم بتجريس الآخر وجعل الذي ما يشتري من بني وطنه يتفرج عليه، لكن من قال إننا يجب أن نحتكم في حياتنا إلى أخلاق المستبدين وسلوك المختلين وطبائع المخبرين وشيم أهل النقص وإن ادعوا الكمال.

المشكلة يا جدعان أننا جميعا ولا أستثني أحدا بمن فيهم أنا نشكو من الاستبداد ونحن نواصل تزغيط وتضخيم وبروزة المستبد الذي بداخلنا. لست أنا الذي أقولها. دونك العظيم عبد الرحمن الكواكبي أستاذ جراحة الاستبداد الأول في كتابه الخالد (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) وهو يجيب لك وعليك من الآخر: «.. إذا سأل سائل لماذا يبتلي الله عباده بالمستبدين، فأبلغ جواب مسكت هو أن الله عادل مطلق لا يظلم أحدا، فلايولي المستبد إلا على المستبدين، ولو نظر السائل نظرة الحكيم المدقق لوجد كل فرد من أسرى الاستبداد مستبدا في نفسه، لو قدر لجعل زوجته وعائلته وعشيرته وقومه والبشر كلهم حتى وربه الذي خلقه تابعين لرأيه وأمره، فالمستبدون يتولاهم مستبد والأحرار يتولاهم الأحرار، وهذا صريح معنى كما تكونوا يولى عليكم».

مع خالص مودتي للأصدقاء الذين حاولوا قتل ودهم لي بعد خلافي معهم، وأغلب الظن أنهم سيفشلون في ذلك لأن ودِّي كالقطط بسبع خلافات.

في حسد سكان القبور!

لماذا يعتقد الناس أن هذا الكاتب جريء، وذلك الكاتب جبان؟ هل هناك حقا كاتب جرئ؟ هل هناك مجتمع يمكن أن يوفر لنا الحرية الكاملة لإعلان كل مانريد قوله، ومتى يجد الإنسان حريته الكاملة التي منحها الله له ويسلبها منه البشر؟ أسئلة أترك الإجابة عليها لعمي وعم الكتابة الأديب الأمريكي العظيم مارك توين الذي كتب منذ عشرات السنين هذا المقال، وأعادت نشره مؤخرا مجلة النيويوركر، وترجمه الأستاذ عبد الله الحراصي، وأهدي مقتطفات منه إلى كل الذين يختارون الطعن في ديني وذمتي كلما قرءوا لي كلاما لا يعجبهم.

يقول مارك توين: «لقاطني القبور ميزة لا يبزّهم فيها أي إنسان حيّ، ألا وهي ميزة حرية الكلمة. وإن تحرينا الحقيقة فإن الأحياء يحظون بهذه الميزة أيضًا، غير أنها ليست عندهم إلا محض أمرٍ شكلي فارغ من مضمونه، حيث يعرفون... أن ثمنها غالٍ يفوق الاحتمال، ذلك أن حرية الكلمة قد تقضي على عمل الإنسان، وربما أفقدته أصدقاءه، وجلبت له المهانة والمسبة من السابلة والدهماء، وربما تسببت هذه

الكلمة الحرّة في أن ينبذ الناس أسرته التي لا جريرة لها فيما فعل، ويصبح بيته معزولًا مقاطعًا لا يزوره أحد.إن الرأي الحرّ المخالف للآراء السائدة في السياسة أو الدين يعيش مكنونًا في قلب كل إنسان ولا يُباح به... والقاعدة هي أنه كلما ازداد ذكاء المرء وحدة ذهنه، ازداد ما يخبئه فؤاده الكتوم من هذا النوع من الآراء التي لا يذيع بها لأحد. ولا يوجد على ظهر البسيطة إنسانٌ، حتى أنا وأنت أيها القارئ، لا يحمل معتقدًا عزيزًا مضمرًا خفيًا تمنعه الآراء العامة من أن يتفوه به. إننا نكتم رأيًا ما في بعض الأحيان لأسباب لا تعيينا بل لأن هذا الكتمان يجلب لنا الفائدة، غير أن الغالب هو أننا نكتم رأينا الذي يخالف الرأي العام؛ لأنه لا يمكننا تحمل الثمن المرير الذي يتوجب علينا أن ندفعه إن نحن صدعنا به وأشهرناه على الملأ، فليس منا من يحب أن يمسي مكروهًا منبوذًا يتجنبه الناس.والنتيجة الطبيعية لهذه الظروف هي أننا، بوعي أو بدون وعي، نجعل سعينا لجعل رأينا متناغمًا مع رأي جيرتنا ومن حولنا، ولضمان موافقتهم على ما نقول، أعظم من سعينا لتفحص الآراء بالبحث والتنقيب في صحتها وسلامتها. إن هذه العادة تؤدي بشكل طبيعي إلى نتيجة أخرى، وهي أن الرأي العام الذي يولد ويترعرع بحسب هذا النهج ليس رأيًا على وجه الإطلاق، بل ما هو إلا (مسايسة)، فليس فيه حظ من العمق، كما أنه يخلو من المبادئ، وليس أهلًا لأي احترام.

... إن حرية الكلمة هي ميزة لا يحظى بها إلا الموتى، يحتكرونها ولا يشاركهم فيها أحد. إن الموتى يستطيعون أن يقولوا وبصدق وأمانة ما يدور في أذهانهم دون أن يؤذوا أحدًا. ونحن نستجيب بالرحمة لما

يقوله الموتى: ربما لا نقر ما يقولونه، غير أننا لا نشتمهم ولا نسبّهم، لمعرفتنا أنهم لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم الآن. لعمري ما الذي سيقوله الموتى لو تكلموا! إن الناس سيكتشفون أن الراحل كان يحمل آراءً تخالف ما كان يصرح به في حياته، وأنه بسبب الخوف أو الحكمة المدروسة أو الإحجام عن التسبب في جرح الأصدقاء، فإنه قد احتفظ لنفسه ببعض الآراء التي لم يشكّ بها عالمُه الصغير، وأنه حملها معه غير محرفّة ولا مغيّرة إلى قبره، وإن هذا سيدفع الأحياء إلى إدراك جارح وموبِّخ بحقيقة أنهم أيضًا قد شربوا من نفس الكأس: إنهم سيدركون في أعمق أعماقهم بأنهم وكل الناس معهم، ليسوا في الواقع كما يبدون في الظاهر ومن المحال أن يكونوا.

ليس منّا من لا يرغب في إظهار أسرارنا هذه، غير أننا لا نستطيع فعل ذلك في حياتنا، فلم لا نفعل ذلك من القبور، ونكسب بذا السعادة والرضى؟ لمَ لا نضع هذه الأمور في مذكراتنا، بدلا من أن نعزلها من كتابتنا ومن أن نتجنبها؟ لمَ لا ندونها ونترك مذكراتنا لأصدقائنا ليقرأها من يأتي من بعدنا؟ ...أشعر بهذا بوجه الخصوص في كل أسبوع أو أسبوعين حينما أود نشر شيء ينصحني عقلي بوجوب عدم نشره. وفي بعض الأحيان تكون مشاعري في قمة الهيجان والاشتعال إلى حد أنني أتناول القلم وأسكبها على ورقة حتى لا أحترق في داخلي. ثم يضيع كل ذلك الحبر والجهد، والسبب هو أنني لا أستطيع نشر ما كتبت. لقد انتهيت للتو من كتابة مقالة من هذا النوع، وقد أشعرتني بالرضا التام. إن روحي تشعر بالسعادة حينما أقرأها، بل إنني أجلّ وأستحسن المتاعب التي ستسببها لي ولأسرتي. سوف أخلفها من بعدي، وسوف أنطق بها من قبري».

هذا ما اختار مارك توين أن يفعله، وقد سار على نهجه ملايين من الكتاب من بعده، دون حتى أن يقرءوا ما قاله، أما أنا فقد اخترت قبل قراءته وبعدها، أن أحتذي بكتَّاب آخرين أحبهم، فأنطق دائما بما أراه أقرب إلى الحق قبل أن أنزل إلى قبري، فما أتعس أن يحول الكاتب عقله إلى قبر مؤقت يدفن فيها أفكاره لكي لا تجلب عليه سخط الناس، والله من وراء القصد، أو هكذا أزعم.

صديقي ماريو بارجاس يوسا!

من «أغوط» أعماق قلبي أتوجه بخالص الشكر للجنة تحكيم جائزة نوبل للأدب التي اختارت منح الجائزة أخيرا للأديب البيروفي العظيم ماريو بارجاس يوسا، لأنها للمرة الأولى منذ سنوات لم تخذلني، واختارت واحدا من أحب الكتّاب إلى قلبي، فنفت عن نفسها التهمة التي كدت أحولها إلى حكم قاطع، وهي أنها تتعمد إغاظتي كل عام باختيار كُتّاب لم أسمع عنهم من قبل ولم أقرأ لهم حرفا واحدا، لمجرد إظهاري بمظهر الجاهل أمام أصدقائي الذين يعلمون غرامي بالروايات المترجمة وحرصي على اقتنائها إلى حد السفه، ومع ذلك وعلى مدى السنوات الماضية التي توسعت فيها متابعتي للروايات الأجنبية المترجمة إلى العربية، كلما أعلن اسم الفائز بنوبل للآداب يجدونني جاهلا باسم الفائز، وحتى في حالة معرفتي طشاشا باسمه، يكتشفون أنني لا أمتلك له عملا واحدا في مكتبتي، لأنه لا توجد له أصلا أي أعمال في كل المكتبات، مما كَوّن لديهم بمرور السنين انطباعا أن كل من أشتري لهم روايات من الأدباء العالميين هم مجموعة من التوافه الذين لا يستحقون أي تقدير.

باستثناء البرتغالي العظيم جوزيه ساراماجو ظللت أكتشف خلال العشرين عاما الماضية أنني كل مرة أسمع اسم الفائز بجائزة نوبل للآداب لأول مرة، فأحاول مداراة غيظي النابع من إحساسي بالجهل باسمه ورسمه، وذلك بأن أقول لأصدقائي: إن هذه الجائزة مسيسة وفاشلة وليس لها مصداقية، بدليل أنها لم تمنح لكتّاب عظماء منهم على سبيل المثال لا الحصر: البرازيلي جورجي أمادو والمكسيكي كارلوس فوينتس والبيروفي ماريو بارجاس يوسا والألباني اسماعيل كاداريه والتشيلية إيزابيل أليندي والتركيان يشار كمال وعزيز نيسين والتشيكي ميلان كونديرا والأمريكي بول أوستر، وكلهم روائيون عظماء بدليل أنني أعرفهم وأقتني أغلب كتبهم المترجمة وأعشق معظمها، ومع ذلك لم تخترهم اللجنة بالعند فيّ، واختارت أسماءً لا أعرف عنها شيئا لأدباء مغمورين سيئين بالتأكيد، وإلا لكنت قد سمعت عنهم أو وجدت كتبهم المترجمة تملأ المكتبات قبل إعلان الجائزة.

خذ عندك ياسيدي على سبيل المثال لا الحصر: «هرتا مولر، إلفريده بيلينيك، جون م. كويتزي، إمره كويتس، ف. إس نايبول، جاو كسينجيان، جونتر جراس، داريو فو، فيسلافا شيمبورسكا، شيموس هيني، كنزا بورو أوي، ديريك والكوت، نادين جورديمير، أكتافيو باث، كاميلو خوسيه سيلا، لوكليزيو، دوريس ليسينج، هارولد بنتر»، كل هؤلاء فازوا بجائزة نوبل للآداب خلال السنوات الماضية دون أن يكونوا في دائرة توقعات صحافتنا الأدبية ونقادها، ودون أن يكونوا من الكتاب ذوي الشعبية والانتشار في دوائر قراءة الأدب لدينا. بالطبع أحيانا وبعد شهور من إعلان اسم الفائز بالجائزة يظهر دائما أنه

كان هناك أعمال مترجمة للفائز لم نكن قد سمعنا عنها، أو أنها لم تجد من ينشرها لأن الناشرين يفضلون الأسماء المضمونة، ودائما عندما تظهر هذه الأعمال أقرأها وأنا أبحث عن تصديق على حكمي المسبق بأن الأديب الفائز لم يكن يستحق الجائزة قطعا، وغالبا ما تُؤدي رداءة الترجمة إلى التصديق على حكمي.

على سبيل المثال لا الحصر، بعد إعلان فوز الفرنسي لوكليزيو بالجائزة تذكرت أنني اشتريت له وأنا في الجامعة رواية اسمها (صحراء) صدرت عن دار المستقبل العربي، كل مابقي في ذاكرتي منها أن غلافها أصفر وأنها رديئة جدا، قلت لنفسي عندما تذكرتها ليس معقولا أن أكون أنا أفهم أكثر من أعضاء لجنة نوبل، بحثت عنها بعناد حتى وجدتها، وعندما أعدت قراءتها اتضح لي أن الترجمة التي قام بها الأستاذ أحمد كمال يونس لم تكن رديئة كما ظننت وقتها، وإنما كانت الرواية تحكي عن عالم لا يعنيني ولا يمسني من قريب ولا من بعيد، ببساطة الحكاية كلها أذواق، ولذلك لم أتعجب عندما قرأت تصريحات لأدباء كبار أحبهم ينتقدون يوسا فنيًّا ويصفون رواياته بأنها مسلية وليست عميقة ولا تترك أثرا في الروح، وهي انتقادات يمكن ببساطة أن توجه إلى بعض أعمالهم التي تمتاز عن روايات يوسا بأنها حتى ليست مسلية، استغربت حماس بعض أصدقائنا في توجيه انتقادات قاسية إلى أولئك الأدباء الكبار الذين انتقدوا يوسا، وحاولت إقناع بعضهم عبثا أنه لا داعي لكل هذا الغضب لأن يوسا نفسه لن يفرق معه أصلا رأي أدبائنا فيه، والرجل بالتأكيد يدرك أنه لن يأخذ كل حاجة، وأعتقد أنك لو خيرته بين نوبل وبين رأي أدبائنا فيه لاختار نوبل بقلب جامد.

بالنسبة لي كقارئ عربي، لا يستحق الروائي العظيم ماريو بارجاس يوسا جائزة نوبل للآداب لوحده، فمن العدالة أن يشاركه فيها بنسبة عادلة المترجم العربي الكبير صالح علماني، والذي لولاه ماكان أمثالي من عديمي اللغات قد قرءوا هذا الكم المتنوع من الروايات الرائعة ليوسا، حتى لحظة فوز يوسا بالجائزة كانت دار المدى العراقية قد نشرت له من ترجمة صالح علماني الروايات التالية « امتداح الخالة، دفاتر دون ريغو دي بيرتو، من قتل بالومينو ماليرو، ليتوما في جبال الإنديز، بانتاليون والزائرات، قصة مايتا شيطنات الطفلة الخبيثة، الفردوس على الناصية الأخرى، حفلة التيس»، بالإضافة إلى كتاب (رسائل إلى روائي شاب) ورواية (الفردوس على الناصية الأخرى) التي نشرتها دار الحوار السورية، وروايته الأحدث (حلم السلتيّ) التي نشرتها دار طوى، كما صدرت له في تونس ترجمة لكتابه النقدي (إيروس في الرواية)، أما المجلس الأعلى للثقافة فقد نشر له عملين قصصيين هما (الجراء الرؤساء) من ترجمة الأستاذة هالة عبد السلام ومراجعة محمد أبو العطا، كما نشرت له دار المدى أيضا روايته الملحمية الضخمة (حرب نهاية العالم)، التي نالت جائزة هيمنجواي الأدبية بترجمة لطيفة للأستاذ أمجد حسين، وحتى الآن لم تترجم إلى العربية على حد علمي أعمال شهيرة له مثل (حديث في الكاتدرائية) و(المدينة والكلاب) و (زمن البطل) و (العمة جوليا وكاتب النصوص) و(السمكة في الماء) التي يروي فيها تفاصيل قراره بخوض الانتخابات الرئاسية في بيرو، و(البابا الأخضر) التي قرأت في مقدمة كتبها الشاعر اللبناني إسكندر حبش طبعة دار الفارابي لرواية (دفاتر

دون ريغو دي بيرتو) أنها صدرت عن منشورات وزارة الثقافة السورية بترجمة رفعت عطفة، لكن لم تتم إعادة طبعها للأسف الشديد، برغم كونها الرواية التي وضعته فور صدورها عام ١٩٦٦ في مصاف كبار الكتاب، وجلبت له جائزة روسولو غوليبغو الدولية للآداب .

للأسف كان فوز ماريو بارجاس يوسا بنوبل للآداب فرصة لفضح الواقع المتردي للصحافة المصرية في تعاملها مع الأدب والثقافة، ـراجع من فضلك التغطيات المختلفة التي قدمتها صحفنا والتي حفلت بالأخطاء ونقص المعلومات، وقارنها بالتغطيات المماثلة التي قدمتها الصحف العربية ولن أقول العالمية للحدث، (أستثني هنا تغطية أخبار الأدب المتميزة دائما وأبدا، ثم تغطية صفحة الأدب في الأهرام والتي يشرف عليها الشاعر الكبير بهاء جاهين) ـ لا أريد هنا أن أتعالم وألقن كل صحيفة درسا وأنا العبد الخطاء، لكن أعتقد أنه من العيب في عصر الإنترنت أن تخطئ صحف كبيرة في معلومات من نوعية كم أديبا من أمريكا اللاتينية حصل على نوبل، فتقول صحيفة كبيرة ثقافيا أن أمريكا اللاتينية حصلت على نوبل للآداب مرتين، وفي صحيفة يرأسها مثقف كبير تقرأ أنها حصلت عليها ثلاث مرات، مع أن المسألة ليست كيميا، يمكن ببساطة أن تدخل كصحفي إلى شبكة الإنترنت وتطبع سطرا في جوجل اسمه (قائمة الفائزين بجائزة نوبل للآداب) ، وعندها ستعرف أن أمريكا اللاتينية حصلت على جائزة نوبل ست مرات، والعهدة على جوجل، أول مرة كانت في عام ١٩٤٥ وكانت من نصيب الشاعرة التشيلية غبريالا مسترال، ثم في عام ١٩٦٧ حصلت عليها للمرة الثانية عندما ذهبت الجائزة إلى كاتب جواتيمالا الأشهر

ميغيل أنخل أستورياس صاحب رواية (السيد الرئيس) الشهيرة، ثم في ١٩٧١ حصل الشاعر التشيلي العظيم بابلو نيرودا على الجائزة الثالثة لأمريكا اللاتينية، وبعدها في عام ١٩٨٢ جاءت الجائزة الرابعة والأشهر التي كانت من نصيب الروائي الكولومبي العظيم غابرييل غارسيا ماركيز، وفي عام ١٩٩٠ كانت الجائزة الخامسة من نصيب الروائي المكسيكي أكتافيو باث، وأخيرا فاز يوسا بالجائزة السادسة لأمريكا اللاتينية التي كانت تستحق دون شك جوائز يفوز بها جورجي أمادو وخورخي لويس بورخيس وخوليو كورتاثار وكارلوس فوينتس وإيزابيل الليندي (وإن غضب البعض)، ومن هؤلاء من قضى نحبه ومنهم من تنتظره الجائزة.

وياليت الأمر اقتصر على أخطاء المعلومات التي نشرتها الصحف حول أسماء روايات يوسا وعدد رواياته، للأسف حاول البعض إصدار أحكام سياسية على الرجل حاولت تصوير أنه فاز بالجائزة لأنه يميني متعفن ساند الحرب الأمريكية على العراق، وأنه انتهازي باع اليسار واشترى اليمين الذي أوصله إلى نوبل، مع أن مواقف الرجل السياسية أكثر تعقيدا وتركيبا من ذلك، للأسف لم تكلف أغلب الصحف نفسها استكتاب متخصصين حقيقيين في أدب الرجل مثل الدكتور حامد أبو أحمد الذي كتب عنه فصولا بديعة في كتاب نقدي له عن أدب أمريكا اللاتينية أصدرته الهيئة العامة للكتاب، تفهمت غضب الدكتور حامد في إحدى الندوات مما قيل من تصريحات ضد يوسا من كتَّاب مصريين، ليس فقط لأنه عرف يوسا شخصيا عندما رافقه خلال زيارته إلى مصر قبل سنوات، وإنما لأنه يعرف بحق قيمة

الرجل وعطاءه الأدبي الذي يتجاوز بكثير موقفا سياسيا اتخذه بسبب انحيازه الدائم ضد الديكتاتوريات السياسية، وإن كان ذلك لم يمنعه من الكتابة بإنصاف عن العراق ووضعها تحت الاحتلال الأمريكي عندما زارها بعد ذلك بسنوات بصحبة ابنته التي صورت تلك الزيارة، وهي مقالات تحولت إلى كتاب لم يترجم أيضا إلى العربية.

الغريب أنني قرأت مقالات وتصريحات لأدباء ونقاد مصريين حول مواقف يوسا السياسية وصلت إلى حد الحديث عن كتابات ابنه الأكبر الذي تحتفي به الصحافة اليمينية في أمريكا، وتعجبت من إصرار البعض على الاستمرار في تصوير أن من يحصل على نوبل للآداب لابد أن يكون مرضيا عنه من الصهاينة والأمريكان، فقد كنت أظن أن ملفا مثل هذا كان ينبغي أن يُغلق بعد ذهاب الجائزة لكتَّاب مثل: ساراماجو وداريو فو وهارولد بنتر ولوكليزيو وجميعهم أصحاب مواقف رائعة ضد الصهيونية والغطرسة الأمريكية، بالطبع ليس يوسا من بقية أهلي لكي أتعصب له وأسعى لمنع أي اجتهادات تطلق بشأنه، لكنني كنت أتمنى أن تكون اجتهادات تقف عند حدود الأدب (أقصد معنَيِّ الكلمة هنا)، ولا تتطوع بمحاولة تشويه الرجل ووصمه باتهامات تبعد عنه القارئ المصري والعربي، خاصة أن الرجل اتخذ مواقف سياسية لم تعجب إسرائيل عندما زار الأراضي المحتلة وانحاز للحق الفلسطيني بطريقته ومن خلال مفاهيمه التي قد لا ترضي طموحاتنا، لكنها يمكن أن تشكل أرضية للحوار مع رجل مثله لديه تأثير أدبي كبير في العالم يمكن أن نستفيد منه لخدمة القضية الفلسطينية إذا كنا راغبين أصلا في خدمتها، أو تذكرها.

على أيّ حال، أعتقد أن يوسا وأدبه أعظم وأجمل بكثير من أن أحاول تلخيصهما أو اجتزاءهما حتى في مساحة شاسعة كهذه، أعجبني السطر الذي عللت به اللجنة قرار منح الجائزة ليوسا «لرسمه خرائط بُنى السلطة ولتصويراته المتعمقة لمقاومة الفرد وثورته وانهزامه»، وهو سطر يلخص بعضا من أعمال يوسا لكنه لا يختزل تجربته كلها كما أظن، في (حفلة التيس) ستجده يقدم تجربة بديعة في أدب الديكتاتور من خلال روايته لقصة ديكتاتور الدومينيكان الشهير تروخيو، عندما ظهرت الطبعة العربية الأولى للرواية في عام ٢٠٠٠ وقرأتها بنهم واستمتاع، لم أكن أعلم جهلا مني أنها تتحدث عن شخصية حقيقية، ثم بعد ذلك ومع تتبعي لأعمال يوسا وجدت أنه يكتب كثيرا من أعماله الروائية عن شخصيات حقيقية ولكن بعد أن يقوم بعمل خلطة روائية بديعة يختلط فيها الواقع بالخيال بشكل مدهش، ستجد ذلك في روايته (الفردوس في الناصية الأخرى) التي يروي فيها جانبا مجهولا من حياة الرسام العالمي بول جوجان، في روايته (قصة مايتا) التي جلبت له سخطا من رفاقه اليساريين القدامى يلقي الضوء على تناقضات الأحزاب السياسية اليسارية مازجا الواقع بالخيال بأسلوب ساخر مدهش، في روايته (بانتاليون والزائرات) يحكي بشكل ممتع عن قصة تأسيس جيش بيرو إدارة سرية تقدم خدمات للدعارة في المناطق التي يخدم فيها الجنود في الغابات والأحراش لكي لا يقوموا باغتصاب نساء القرى المجاورة لمناطق خدمتهم، ويتم تكليف أكثر الضباط حزما وصرامة بترك الخدمة العسكرية رسميا وإنشاء هذه الإدارة دون أن يعترف بارتباطها بالجيش، في روايته (من قتل بالومينو

ماليرو) يكشف من خلال تحقيق في جريمة قتل حلقات الفساد التي تنشأ بين المؤسسة السياسية والمؤسسة العسكرية، وحتى في أعماله التي تبدو بعيدة عن الأجواء السياسية يحرص يوسا على تقديم خلفية معرفية في كل رواية بأسلوب يبتعد عن المباشرة لكنه يقدم فائدة عظيمة لقارئه.

كل ماحققه يوسا من نجاحات أدبية لم يقنعه بالابتعاد عن الاشتباك مع الواقع، فهو حتى الآن يكتب في الصحف مقالات منتظمة، بل ويقوم أحيانا بعمل تحقيقات صحفية بتكليف من بعض الصحف، وهو يعلن دائما أنه مدين للصحافة بأنها ألهمته نصف ما كتبه، وفي حين يحاول بعض كتّابنا أن يهرب من اتخاذ مواقف سياسية محترمة يواجهون بها الواقع بزعم أن ذلك يؤثر سلبا على جودة أدبهم، نرى يوسا عندما يسأل في حوار صحفي حول إصراره على كتابة المقالات السياسية وما إذا كانت يمكن أن تؤثر عليه سلبا، فيرد قائلا: «أعتقد أن الكاتب لا يجب أن يفكر في الانسحاب، إن مهمة الكاتب هي أن يكتب بصرامة وأن يدين كي يدافع عما يؤمن به بكل ما لديه من موهبة، أومن أن هذا اعتبار أخلاقي للكاتب، لأنه لا يمكنه أن يكون فنانا مجردا، أعتقد أن على الكاتب مسئولية من نوع ما، على الأقل في أن يشارك في الحوار المدني، لأنني أعتقد أن الأدب يحسن الأحوال إذا أصبح جزءا من برنامج الناس والمجتمع والحياة... أعتقد أن مداخلات الكتاب في الحوار العام يمكن أن تصنع فرقا، إذا انتزعت الثقافة تماما من سياق ما يجري فإنها تصبح مصطنعة».

لم يكتف يوسا فقط بالكتابة في الشأن السياسي والاشتباك مع الواقع، بل قرر أن يخوض تجربة العمل السياسي بشكل مباشر حين رشح نفسه لانتخابات الرئاسة في موطنه بيرو ضد رئيسها ألبرتو فوجيموري ودخل في جولة إعادة خسرها، وكانت تجربة مريرة قضى فيها ثلاث سنوات من عمره لكنه تعلم منها أشياء كثيرة أهمها أن «شهوة السلطة السياسية يمكن أن تدمر عقلا بشريا وتدمر مبادئا وقيما، وتحول البشر إلى وحوش صغيرة»، وأن «الطغاة ليسوا كوارث طبيعية بل يتم صناعتهم بمعاونة عديد من البشر، وأحيانا بمعاونة ضحاياهم أيضا»، وبعد هزيمته قرر أن يعود ثانية إلى الأدب وهو أمر نحمد الله عليه لأنه أنتج بعدها عددا من الروايات الجميلة، لكنه لم يتوقف عن كتابة المقالات السياسية المهمة والممتعة حتى الآن.

آخر ما قرأته له كان مقالا بعنوان (زمن البهلوانات) نشرته له (أخبار الأدب) وترجمه الروائي المتميز أحمد عبد اللطيف، وهو مقال احتفت به العديد من المواقع الثقافية العربية بوصفه يشكل إدانة لما قام به القس الأمريكي المتعصب تيري جونز الذي دعا إلى حرق القرآن الكريم في كنيسته بفلوريدا، لكن المعنى الأهم في مقال يوسا كان عن ثقافة الاستعراض التي أصبحت هي السمة الأساسية لمجتمعنا في هذا الزمن الذي يصفه يوسا بأنه أكثر الأزمنة التباسا في تاريخ البشرية، معتبرا أن ما فعله جونز من حماقة وبهلوانية لم يكن يستحق سوى الصمت أو التجاهل أو على أقصى تقدير كتابة سطرين في صفحة النكات والغرائب بالصحف، لكن احتفاء وسائل الإعلام بجونز كاد يشعل العالم كله، وجونز كان سعيدا بذلك ولم يدرك

أبدا خطورة مافعله لأنه على حد تعبير يوسا «أحد ملامح التعصب المحددة هو عدم قدرة المتعصب على تملك خطة بالأولويات الرصينة والمنطقية، فالأولوية الأولى لديه هي دائما فكرة أو إله يمكن أو يجب أن يضحي بالآخرين من أجله».

لا يلقي يوسا اللوم على وسائل الإعلام وحدها بسبب تضخيمها لما حدث، فهو يرى أنها باتت مضطرة لفعل ذلك لأن هذا هو ماينتظره منها قراؤها ومشاهدوها في العالم أجمع «أخبارا تخرج عن الروتين اليومي، تدهش، تربك، ترعب، تفضح، وفوق كل شيء تسلي وتلهي.. لا يمكن أن تكون المعلومة في أيامنا جادة، لأنها لو كانت كذلك سيكون مصيرها القبر، فالقاعدة العريضة من تلك الأقلية التي ما زالت تهتم بمعرفة ماذا يحدث يوميا في الأوساط السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية في العالم، لا تريد أن تشعر بالملل وهي تقرأ أو تسمع أو تشهد تحليلات فطنة ولا معقدة مليئة بالصبغات، وإنما تريد أن تتسلى، تقضي وقتا هادئا يخلصهم من ضيق وإخفاقات وتوترات اليوم، وليس محض صدفة أن تجد جريدة مثل لوموند الفرنسية، وهي واحدة من أكثر الجرائد جدية واحتراما في أوروبا على أبواب الإفلاس عدة مرات في السنوات الأخيرة، وأنقذت نفسها حديثا مرة أخرى، لكن من يدري إلى متى، إلا إذا خضعت لإفساح مساحة للخبر التسلية، الخبر النكتة، الخبر التفاهة، الخبر الفضيحة، الذي احتل بطريقة منهجية كل وسائل الإعلام الكبرى سواء في العالم الأول أو الثالث... ولكي تمتلك وسائل الإعلام الآن الحق في الوجود والازدهار لا يجب أن تعطي أخبارا، وإنما تقدم استعراضا لمعلومات

تشبه في لونها وفكاهتها وطابعها المثير وعلو نبرتها، الاستعراضات الواقعية حيث يلتبس الحق بالباطل كما يحدث في العمل الخيالي».

ويلفت يوسا الانتباه إلى أن تحول التسلية لتكون القيمة الأهم في عالمنا برغم تجاوزها لمبادئ أساسية مثل التعايش والأخلاق والجمال والذوق، مشكلته أنه شرٌّ لا بد منه في المجتمعات التي تتمتع بالحرية، لأن محاولة تقليل أو قمع الحرية من أجل السيطرة على هذه الجوانب السلبية للتسلية، سيكون له عواقب أوخم من هذه التفاهات، وهو مايجعل المجتمعات للأسف تواصل افتتانها بالحاجة للتسلية كهدف أول، وبالتالي يُحَوِّل المجتمع «خطوة خطوة ساسته ومثقفيه وفنانيه وصحفييه ورعاته أو كهنته وحتى علماءه وعسكرييه إلى بهلوانات»، وهو ما ينذر في رأيه بدفع عدد أكبر من الناس من مختلف المدارات للتصرف بطريقة تسمح لهم بالهروب من الظلام والدخول في محيط الشهرة التي يتمتع بها البهلوانات الذين يُصفق لهم إن أجادوا فن التسلية ويتلقون البقشيش ثم يُنسون إلى الأبد، لدرجة أنك تجد عالما كبيرا مثل ستيفن هاوكنج يجعل دعاية كتابه القادم مبنية على حديث شديد السطحية يقول فيه: إنه سيبرهن أن خلق العالم يمكن أن يحدث دون حاجة إلى إله، وهو مايعتبره يوسا دليلا على سيادة مناخ الاستعراض والبهلوانية الذي يفسر ماقام به العنصري تيري جونز والذي «ربما يكون متعصبا أو مجنونا أو مهرجا صرفا، لكنه في كل الأحوال يجب أن يبقى واضحا أنه لم يفعل ذلك بمفرده، فكلنا شركاء له».

يااه، فتح الله عليك ياعم يوسا، يا صديقي العزيز.

أزهى عصور الفشل الكلوي!

من لم يعظه أسامة الدناصوري فلا واعظ له.

قرأت كتابه المعجز «كلبي الهرم كلبي الحبيب» فاتعظت عظة لم أجدها لدى مئات الكتب التي كُتِبت خصيصا لتَعِظَ ضعاف النفوس من أمثالي، وغيرت قراءته حياتي إلى الأبد كما لم تفعل عشرات الكتب التي يُقال إنها تُغَيِّر حتما ولزما حياة من يقرأها، مع أنني لم أكن يوما أعتقد أن حياتي ستتغير على يد شاعر لم أتوقف يوما عند شيء يخصه غير اسمه. ربما لو كان أسامة الدناصوري ـ رحمه الله ـ يعلم أن أحدا سيقول كلاما كهذا عن كتابه لما كان قد كتبه، لأظنه كان مهتما بأن يعظ أحدا أو يغير حياته للأبد، بقدر ماكان مهتما أن تعطيه الكتابة هدنة مؤقتة من صحبة الألم ومكابدة الشقاء.

الكتابة عن الكتب صعبة، فما بالك بالكتابة عن الكتب التي تغير الحياة، لذلك تأخرت طويلا في الكتابة عن كتاب أسامة الدناصوري، لم أكتب عنه إلا بعد أن تصالحت مع فكرة أنني لن أوفيه حقه أبدا مهما كنت بارعا، كيف يمكن أن يكتب الإنسان بسهولة عن كتاب

يجسد ضعف الإنسان ويخلد قوته في نفس الوقت، كتاب يعلمك أن تقدر كل النعم التي تبدو لك صغيرة أو لاتبدو لك نعما على الإطلاق، كتاب سيعلمك كيف تحب كل تفاصيل الحياة وألا تقع أبدا في فخ الحلم بصورة كاملة أو مثالية، كتاب يجعلك تبوس يدك وجها وضهرا كلما حاصرتك هموم الدنيا لأنك لست مضطرا برغم كل همومك لمكابدة ألم العملية «روح الغسيل الكلوي»، كتاب يعلمك وهذا ليس درسا سهلا صدقني، أن تحب أكثر كلبك قبل أن تصيبه غوائل الدهر بالهرم وتدعو الله ألا يحرمك منه أبدا.

لاأريد أن تتصور أبدا، بسبب كلامي الذي لايرقى إلى مستوى كتابة كانت دماء أسامة مدادا لها، أن كتابه مشغول بأن يردد لك ذلك الكلام الذي كنت تعتبره هراء منذ كنت تقرأه على جدران المدرسة وتسمعه في الإذاعة الصبح وتشاهده الساعة ثمانية بالليل ويحاصرك من كل اتجاه دائما «صحتك بالدنيا، والصحة تاج على رأس الأصحاء لايراه إلا المرضى، وربنا يديك الصحة، وفكّها ياعم المهم صحتك، وماتعملش في نفسك كده هيجرا لصحتك حاجة»، صحيح أن كتاب أسامة كعرض جانبي سيجعلك تقدر كل هذا الكلام، لكنه لايقول لك كلاما مبتذلا كهذا، لأنه يؤمن أنك حرٌّ في إفساد حياتك وتدمير صحتك كما تشاء، كما أنك لست محتاجا لكي تؤمن بهذا الكلام لقراءة كتاب، بقدر ما أنت محتاج لنزلة برد قذرة.

أجمل مافي الفن ما لايقوله الفن صراحة، وأجمل مافي كتاب أسامة الدناصوري أنه جاء شهادة حية في عز عصر مبارك على موات

عصر مبارك دون أن يقول ذلك بالمفتشر، مواضع كثيرة من الكتاب تحتاج منك إلى أن تكون قويا بما يكفي لمواجهة العفن الذي نعيشه وهو يتجسد أمامك مكثفا كأبشع مايكون. تقول لنفسك دون تجنٍّ: إذا كانت مصر قد عاشت أيام عبد الناصر عصر الأحلام الكبيرة والخيبات الأكبر، وعاشت في أيام السادات عصر المصالح الصغيرة، فقد عاشت مع مبارك وسنينه عصر الفشل الكلوي بامتياز، الفشل الكلوي في كل المجالات.

استمع وتألم إلى هذا الحوار الذي يرويه أسامة داخل وحدة غسيل كلوي بين اثنين من الذين داس عليهم هذا العصر: «إيه رأيك في الشغل في القصر العيني بعد غياب السنين دي؟. اسكت دي حاجة لاتسرعدو ولاحبيب. إزاي؟ منتهى الإهمال دي حتى وحدة الملك فهد اللي كانوا بيضربوا بيها المثل بقت زبالة، دي العيانين يابني هي اللي بتقفّل لنفسها ومن كام يوم أبو واحدة صاحبتي مات عالمكنة. ألا إيه اللي ممكن يحصل عشان واحد يموت عالمكنة. أكيد دخَله هوا أو جاله هبوط حاد ومحدش لحقه».

لم يكن أسامة الدناصوري خلال حياته القصيرة بحاجة إلى المزيد من المعاناة، ولذلك كان يتبنى نظرية أسماها «القلقسة» لتسهيل حياته في جحيم الآخرين، والقلقسة كما يصفها أسامة هي «جعل الرأس كالقلقسة الصماء التي لاتعي شيئا ولاتهتم بشيء تعلمت أن أقلقس معظم الحوارات التي تدور بيني وبين الآخرين حتى تسير الحياة بنعومة كما تسير».

المشكلة أن أسامة الذي رحل بنعومة لم يأخذ باله أنه ليس صاحب هذه النظرية ولا يرجع له فضل ابتكارها، فقد رحل دون أن تسمع مصر بألمه ودون أن تسمع ألم أحد من أبنائها، لأنها من فرط الألم الذي كابدته كل هذه السنين وجدت أن الألم سيكون أخف عندما تقلقس لأبنائها.

ألف رحمة ونور يا أسامة. ألف رحمة ونور.

التبول الاحتجاجي!

إذا كنت مرهف الإحساس أرجوك لاتقرأ هذا الفصل. وإذا كنت «لسه واكل» فيمكن أن تؤجل قراءته قليلا.

سين سؤال: هل يمكن أن تعتبر روائح البيبي التي تعبق بها أسافل كباري القاهرة وأكوام الكاكا التي تعج بها بطون أنفاقها ممارسة من نوع خاص للاحتجاج السياسي ضد نظام الحكم؟ ليس في هذا السؤال رغبة تعسفية مني في إثارة قرفك بقدر ماهو محاولة لفهم ما آلت إليه أحوال شوارع شعب متحضر كان دائما يعطي للنضافة قيمة خاصة تجعل أفضل وصف يطلقه على شخص بأن دماغه «نديفة»، وأفضل وصف يطلقه على الدنيا عندما يرضى عنها بأنها «زي الفل».

لست أنا الذي أقول بالتبول الاحتجاجي، الروائي التركي الجميل مظفر أزغو يقول به في قصة رائعة تحمل عنوان «نفق للمشاة» ترجمها الكاتب السوري عبد القادر عبد اللي، تحكي القصة عن قرية تركية هبط عليها وفد رسمي ذات يوم ليبشر أهاليها أن دولة صديقة قررت أن تهدي القرية نفقا للمشاة هو آخر ماتحتاج إليه القرية التي لم يكن

بها سوى شارع رئيسي واحد، لم يفهم أهل القرية لغة رئيس الوفد الصديق ولذلك صفقوا من قلوبهم، بعد أسابيع جاءت آلات ضخمة وبدأت بالحفر في وسط الطريق ليمني الأهالي أنفسهم بافتتاح مصنع أو مستشفى جاهز من مجاميعه، والبعض شطح به الخيال ليتخيل افتتاح بئر بترول، وبعد أشهر فوجئوا أن كل هذا الفيلم كان من أجل افتتاح نفق مشاة، بعضهم سأل: ماذا يعني نفق مشاة؟ فأجيب: إنه نفق تدخل من طرفه وتخرج من الطرف الآخر.

عبر أهل القرية النفق بعد افتتاحه فلم يجدوا به جديدا ولذا لم يعبروه ثانية، ورغم إغراءات المسئولين للمواطنين بمزايا النفق حذرت نساء القرية أبناءهن من الدخول في ذلك الثقب، إلى أن وجد مجنون القرية وظيفة جديدة للنفق، عندما شوهد خارجا منه يزرر سرواله قائلا «عملت تيرلم»، أصحاب الدكاكين المجاورة للنفق قالوا: «إنه أعقل منا والله. نحن من أجل عمل الكذا نذهب إلى الجامع والنفق بجانبنا»، غضب المحافظ لتحول النفق الهدية إلى دورة مياه، استدعى مرءوسيه ووضعوا حراسة على النفق، فازداد عناد الناس لاستخدامه كدورة مياه، وأصبح فعل الدنيئة في النفق مقياسا للرجولة، كان يعاقب بالضرب من يقبض عليه يعملها في النفق، لكن ذلك لم يقمع الناس فقد أصبح تلقي علقة النفق دليلا على الجدعنة.

ذات يوم طب على القرية مندوب من الدولة الصديقة لتفقد رمز الصداقة بين البلدين، حاول مدير المنطقة المذعور إلهاءه دون جدوى، لكنه لم يفلح في ذلك، عندما وصل المندوب إلى النفق

كانت الروائح الخبيثة تزكم الأنوف، نظر إلى النفق الممتلئ بأشكال الدنيئة مذهولا ثم قال لمدير المنطقة: «لم أر في حياتي احتجاجا بهذا الشكل، سأحكي عن هذا الأمر في بلدنا عندما أعود، سأقول لحكومتنا أن شعبكم ناقم علينا وهم يعملون خروجهم فوق منشآتنا معبرين عن احتجاجهم علينا، هل وجههم أحد منكم لعمل هذا هنا، أم أن شعبكم اخترع هذا الشيء بنفسه، ليقول لنا بهذا التصرف: خراء على صداقتكم وأخوتكم».

ينهي مظفر أزغو قصته بهذه الكلمات القاسية، لكن المعاني الأشد قسوة والتي تطرحها القصة لا تنتهي. دعني أقل لك إنني زرت قرى تركية كثيرة فلم أر مظاهر احتجاجية كالتي حكى عنها مظفر في قصته التي كتبها في ظل حكم العسكر. وكنت كلما مررت بنفق للمشاة أوعبرت أسفل كوبري أدرك كم فقد الأتراك رغبتهم في الاحتجاج تبولا، ليس لأن أحوالهم الاقتصادية تحسنت فقط، بل لأن تجربتهم الديمقراطية استقرت بشكل مذهل، قبل أيام ٢٠٠٦ أخذت أتميز حسدا وأنا أقرأ عن استقالة وزراء الداخلية والعدل والنقل قبل الانتخابات التشريعية التركية بأشهر ليتركوا مناصبهم لمستقلين لا يستغلون مناصبهم في الانتخابات، بينما البلاد تشغي بصراع سياسي راقٍ بين أنصار علمانية شرسة وأنصار تيار إسلامي مبهر لا يدعي امتلاك الحل ولا يحتكر الحقيقة.

أصبح لدى الأتراك بفضل الحرية مكان يحتجون فيه أبعد من أنفاق المشاة، بينما لا يزال الناس لدينا مضطرين لممارسة الاحتجاج

أسفل الكباري وإعلان السخط داخل أنفاق المشاة، لدرجة أنه لو زار بلادنا المنكوبة بحكامها قارئ من قراء مظفر أزغو لظن أن قصته نفق للمشاة هي الأكثر مبيعا لدينا لدرجة أننا حولناها إلى أسلوب حياة.

هوس العمق!

طلب مني .صديقي محمد رجاء المشرف على باب النقد في مجلة السينما البديعة «سينما جود نيوز» أن أكتب له كلمة عن قصتي مع نقاد السينما ورأيي فيما يكتبونه عن أفلامي سواء كان بالسلب أو بالإيجاب، حاولت أن أشرح له أنني عملت عملية أزلت بها غُدّة الحساسية النقدية فأصبحت بعدها مؤمنا حقا وصدقا بحرية الرأي للجميع، خاصة أن النجاح الذي ينعم الله عليك به فيفتح لك قلوب الناس يعلمك أنه لايوجد أحد في الدنيا يأخذ كل شيء في نفس الوقت، وأن الكلام ليس عليه جمرك، سواء كان كلامك أو كلام غيرك، وفي ساحة الحياة متسع يساع الجميع ناقدين ومنقودين، وعلى الكل أن يؤدي عمله دون أن يدعي امتلاك الحقيقة المطلقة فيصادر على الآخرين ويطلق عليهم الأحكام القاطعة.

كل هذا قلته لمحمد رجاء لكنه لم يثنه عن عزمه وظل مصرا على طلبه، ولأنني ضعيف أمامه ككاتب موهوب وأمام مجلته التي تمتعني كل شهر، قررت أن ألبي طلبه بشكل ملتوٍ لا يجعلني أنقض عهدي

بألا أشغل نفسي بشيء غير مواصلة العمل ومواصلة السعي لتجويده وتوفير الظروف المناسبة التي لاتفسد مابه من نوايا طيبة، لذلك استعنت على ذلك بهذه القصة البديعة الساحرة للكاتب الألماني المعجز باتريك زوسكيند صاحب الرواية المذهلة «العطر» التي لا أنصحكم بإكمال الحياة دون قراءتها، من شدة إعجابي بقصة زوسكيند قرأتها بأكثر من ترجمة، لكنني ظللت دائما مفتونا بترجمة الكاتب القدير طلعت الشايب التي أستعين بها هنا في تلخيصي الذي أتمنى ألا يكون مخلًّا لهذه القصة البديعة التي اختار لها طلعت الشايب عنوانا أبدع هو «هوس العمق». مضطرا أن أسبق القصة بفقرة أؤكد فيها على طريقة الأفلام العربية: أن أي تشابه بين هذه القصة وبين مايحدث على أرض الواقع هو تشابه مقصود ومتعمد بخبث بالغ، أتحمل أنا وحدي وزره دون أن يكون لباتريك زوسكيند فيه أدنى ذنب.

شوف ياسيدي: «عندما أقامت شابة من شتوتجارت ترسم رسوما جميلة معرضها الأول، زار أحد النقاد معرضها وكان حسن النية ويريد أن يشجعها فعلق على معرضها قائلا: أعمالك مثيرة للاهتمام وهي تدل على موهبة حقيقية ولكن ينقصك العمق. لم تفهم الشابة مايقصده الناقد بذلك، وسرعان مانسيت ملاحظته. بعد يومين نشرت إحدى الصحف مراجعة نقدية للناقد نفسه يقول فيها: هذه الشابة تتمتع بموهبة أكيدة وأعمالها تبدو جميلة من النظرة الأولى، لكنها للأسف تفتقر إلى بعض العمق. حينذاك فقط بدأت السيدة الشابة تفكر في الأمر، وراحت تفتش في لوحاتها وأوراقها القديمة بإمعان،

دققت في رسومها جميعا بما فيها تلك التي لم تكن قد انتهت منها بعد، ثم أغلقت محابرها وغسلت أقلامها وخرجت لتتمشى.

في المساء ذهبت إلى حفل دعيت إليه وفوجئت أن من حضره كانوا يحفظون ماكتبه الناقد عنها، ومن الهمهمات التي تدور في الحفل سمعتهم يتحدثون عما تحدثه لوحاتها من متعة عند النظر إليها لأول مرة، لكنها كانت تسمع أيضا عبارات مثل «لاعمق»..«ليست سيئة لكنها للأسف ينقصها العمق»..«تلك هي المشكلة».

على مدى الأسبوع التالي كله لم ترسم شيئا.. كانت تجلس صامتة في شقتها تطيل التفكير وسؤال وحيد يلتهم كل الأفكار التي تدور برأسها «لماذا ليس لديّ عمق؟». حاولت أن ترسم في الأسبوع التالي لكنها لم تنجز سوى خربشات خرقاء.. ساء الأمر عندما أصبحت تعجز عن وضع علامة واحدة على الورق، وفي النهاية أصبحت يدها ترتعش بشدة لدرجة تعجزها عن وضع القلم في المحبرة.. أخذت تصرخ وتنتحب: فعلا أنا ليس لديّ عمق.

في الأسبوع الثالث بدأت تفتش في كتب الفن وتدرس أعمال الفنانين الآخرين وتتجول في المعارض والمتاحف، بل وذهبت إلى إحدى المكتبات وطلبت من البائع أعمق كتاب لديه فأعطاها كتابا من تأليف شخص اسمه فتجنشتاين لم تفهم منه شيئا. ذهبت بعدها إلى معرض أقامه متحف المدينة بعنوان ٥٠٠ عام من الرسم الأوروبي، اندست وسط أطفال كان مدرسهم يصحبهم في جولة بالمعرض، وأمام لوحة لدافينشي سألت المدرس عما إذا كان لهذا

العمل عمق؟ فاعتبر المدرس أنها تريد إحراجه أمام تلاميذه، ضحك عليها الأطفال، وعادت هي إلى البيت باكية، وأصبحت غريبة الأطوار أكثر من ذي قبل، ولم تعد تغادر الغرفة التي كانت تعمل بها رغم أنها لا تستطيع أن تنجز شيئا. صارت تتناول أقراصا لكي تنام، ومع ذلك تظل مستيقظة، وعندما يغلبها التعب تنام في مقعدها، وهي لاتذهب إلى الفراش لأنها تخشى عمق النوم، بدأت تشرب وتبقي أنوار الغرفة مضاءة طيلة الليل، ولم تعد ترسم، وعندما اتصل بها وكيل فني من برلين ليسألها عن أعمالها، صرخت في الهاتف «دعوني وشأني..فأنا ليس لديّ عمق».

أهملت الشابة نفسها وأهملت شقتها وصارت تعيش في فوضى كاملة، وتزايد قلق أصدقائها عليها فأخذوا يقولون لبعضهم: لابد من أن نساعدها فهي تنجرف نحو الاكتئاب الشديد، قد تكون في أزمة شخصية، أو لديها مشكلات فنية، أو لعلها صعوبات مالية. كانت ترفض دعوات أصدقائها للعشاء بالخارج أو إلى بعض الحفلات، متعللة بأنها مشغولة برغم أنها لاتفعل شيئا، كانت تجلس في غرفتها تحدق أمامها ويداها تعجنان الصلصال في ذهول مشكلة قطعا بدائية. ذات يوم قررت أن تهرب من يأسها وتلبي إحدى الدعوات. وبعد أن أمضت المساء بالخارج ذات يوم، أراد شاب كان يراها جذابة أن يصحبها إلى منزله، قالت إنها كانت تتمنى ذلك، فهي أيضا تراه جذابا، لكن عليه أن يكون مستعدا لمواجهة حقيقة مهمة، وهي أنها ليست عميقة، وعندما سمع الشاب ذلك تركها وانصرف.

تدهورت صحتها، ولم تعد تخرج من المنزل أبدا، هجرت الجنس، أصابتها السمنة بسبب قلة الحركة والإفراط في الشرب والأقراص المهدئة، كل ذلك جعلها تشيخ قبل الأوان، أصبحت رائحتها نفاذة كرائحة شقتها. خلال ثلاث سنوات أنفقت ٣٠ ألف مارك كانت قد ورثتها، أصبح كل من يتحدث إليها في الهاتف لايسمع سوى همهمة غير مفهومة، فجأة ذات يوم سافرت إلى نابولي بعد أن أنفقت كل نقودها وقطعت كل لوحاتها، وهناك صعدت إلى أعلى برج التلفزيون الذي كان يبلغ ارتفاعه أو عمقه مائة وتسعة وثلاثين مترا وقفزت منه، كانت الرياح يومها قوية، فلم تسقط الشابة في الميدان المفروش بالحصى تحت البرج، حملتها الرياح فوق حقل شوفان على حافة غابة صغيرة، حيث سقطت فوق مجموعة من الأشجار الوارفة، إلا أنها ماتت في الحال.

اهتمت صحف التابلويد بالحادث.. الانتحار.. والمساء غير العادي.. وبكونها فنانة واعدة، كل ذلك ضاعف من إثارة القصة، ثم ظهر أن حالة الشقة التي كانت تسكنها مأساوية، ولذلك أصبحت مادة لصور صحفية أكثر إثارة، آلاف الزجاجات الفارغة، آثار الدماء في كل مكان، رسوم مشققة وممزقة، كتل من الصلصال على الجدران، وبقايا براز جاف في الأركان.

وفي مجلة نقدية ظهر مقال قصير للناقد إياه، يبدي فيه حيرته، لأن الفنانة الشابة كان لابد من أن تلقى تلك النهاية البشعة. كتب يقول: «مرة أخرى، نرى نحن الباقون بعد ذلك الحادث الصادم

شخصا موهوبا لم يجد القوة ليؤكد ذاته على مسرح الحياة، لايكفي أن يكون لديك القبول العام أو المبادرة عندما يكون الشخص معنيا بمصاهرة العالم الإنساني، ومايصاحب ذلك من فهم لعالم الفن، يبدو من المؤكد أن بذرة تلك النهاية كانت قد زرعت من زمن بعيد. ألم يكن من السهل إدراك ذلك التنافر المخيف والواضح في استخدامها لأساليب مختلفة، ذلك الاعتلال العقلي المركز على فكرة واحدة والموجه نحو الذات، ذلك التمرد الباطني متأجج العاطفة، والذي كان يحفر داخلها على نحو حلزوني دون فائدة ترجى، تمرد الإنسان على وجوده في أعمالها التي تبدو ساذجة؟ هوس العمق، تلك الرغبة الطائشة القاتلة؟».

انتهت القصة البديعة، رجائي أن تكون قد قرأتني صح يا محمد يا رجاء، والأهم يا كُلّ فنانٍ هَشِّ الروح يأبى إلا أن يستفتي قلبه وإن أفتاه الناس وأفتوه.

إطار أخضر لصورة الماغوط!

كيف تتخلف أمة وتظل رهينة الفقر والجهل والاستبداد وفي أرجائها يجري نهر متدفق من الإنسانية والفن والإبداع اسمه محمد الماغوط؟ هكذا كنت أسأل نفسي كلما قرأت كتابا أو مقالا أو قصيدة أو شاهدت مسرحية أو فيلما لمحمد الماغوط أحد أبطالي المفضلين في الحياة وآبائي العظام على البعد.

لو عاش محمد الماغوط في بلاد متحضرة لطبعت كلماته على أغلفة كتب المدارس بدلا من النصائح المعلبة التي تحولت إلى مادة للسخرية، ولعلقت عباراته العبقرية على حوائط الشوارع بدلا من أقوال السادة القادة، ولاستبدلت قصائده بترهات الحكام المسماة خطابات رئاسية مهمة. لكن محمد الماغوط كان عربيا ولذلك لم يشتهر بين بني وطنه إلا كصاحب فيلم (الحدود) ومسرحية (كأسك ياوطن)، ولم يقرأ أحد دواوينه الشعرية الساحرة ولم يلتفت الكثيرون إلى كتبه التي تجمع مقالاته الساحرة التي أعتبرها إعجازا حقيقيا في تاريخ النثر العربي.

ذهبت إلى دمشق للمرة الأولى عام ٢٠٠١ في مهمة عمل قبلتها فقط لكي أزور قبر صلاح الدين الأيوبي وأبكي في ساحة الجامع الأموي وأُقَبِّل رأس محمد الماغوط، لم أبك في ساحة الجامع الأموي لأن دموعي كانت قد جفت على قبر صلاح الدين، ولم توقفها إلا ضحكاتي التي فجرتها خناقة عبثية اندلعت بين رجل عراقي وزوجته لأنها لم تصوره جيدا وهو يتكئ على القبر فخورا بوقفته وهو يتكئ على القبر، ولم أزر الماغوط لأنني كلما سألت عنه أحدا أطرق بوجهه إلى الأرض ونصحني بعدم زيارته لأنه في حالة صحية ونفسية سيئتين، توالت الحكايات عن دخوله في حالة اكتئاب تتصاعد حدتها يوما بعد يوم منذ رحلت زوجته وحبيبته الشاعرة سنية صالح، وعن إدمانه الشراب بشكل مدمر لصحته وفرضه ستارا من العزلة على نفسه، «من الآخر ربما تكره الرجل لو زرته، وقال لك ما لا تحب سماعه».

كان السير في شوارع دمشق المكسوة بصور الرئيس القائد الأسد وابنه وتماثيلهما وشعاراتهما وحكمهما وتمجيدهما يكفي لتفهم كل مايمر به الماغوط عصفور الحرية الذي اختار أن يغرد داخل قفص الوطن بدلا من أن يهاجر خارجه ويقبض ثمن تغريده. بعدها بعامين عدت إلى الحبيبة دمشق فرحا بأنني سكنت في فندق جوار مقهى أبي نواس الذي كان مكانه المختار، كل صباح كنت أذهب إلى المقهى وأطالع وجوه الجالسين عليه أملا في أن أتعرف عليه من صورته المحفورة في قلبي، خاب أملي عندما قال لي صديقي القصاص والكاتب محمد منصور (الذي اشترك مع الماغوط في كتابة مسلسل

كوميدي سياسي هو آخر ماكتب الماغوط من أعمال فنية ولعله يظهر للنور قريبا): إن حالة الماغوط الصحية لم تعد تسمح بخروجه من البيت كثيرا، وأن انشغاله بالكتابة يجعله لايتقبل الزائرين بترحاب، في اليوم التالي ضحك محمد منصور عندما رآني في مقهى أبو نواس أتفحص في وجوه الحاضرين كأنني لم أسمع منه كلمة بالأمس. بعدها سنحت الفرصة لكي أزور الماغوط بصحبة أحد المقربين إليه، لكنني تراجعت لأنني خشيت أن أرى الرجل في لحظات مرضه وضعفه، فضلت أن أحتفظ بالصورة الخيالية التي رسمتها له من كتبه وأشعاره ومسرحياته وأفلامه، فارس يمتطي صهوة قلمٍ بريٍّ عصيٍّ على الترويض، ضحكته وسع الكون، يستطيع تلخيص تاريخ الأمة العربية في سطر في مقال، ويستطيع تكثيف أحزان البشر في سطر في قصيدة.

كانت حياة الماغوط صاخبة ككتابته، حزينة كشعره، تهكمية كمسرحه، كان إنسانا فوضويا لا بالصدفة أو بسبب قلة الحيلة أو بسبب قلة الموهبة كما يحلو لبعض المدعين أن يجعل من الفوضى ستارا لقلة موهبته، بل كان فوضويا بمحض إرادته، فوضويا بقرار شخصي، قالها ذات مرة: «الشعر ليس نظاما بل فوضى، وليس وليد هذا الزمان أو ذلك بل لقيط العصور كلها، إنه عزلة المتنبي لافخره، حزن أبي نواس لاطرائفه، جنون قيس لاحبه، غربة عنترة لاشجاعته، خريف فرلين لاربيع البحتري، موت رامبو وجبران ونجيب سرور وكمال ناصر وأمل دنقل، وانتحار لوتريامون وخليل حاوي وتيسير سبول وعبد الباسط الصوفي في ميعة الصبا، لاشيخوخة صالح

جودت وأحمد رامي وميخائيل نعيمة. الشعر هو الذي لايقودك إلى الدخل الثابت والمكان المعهود والمسلسل المشوق بين أفراد عائلتك، بل إلى المعتقلات النائية والمناقشات البائسة والصيدليات المناوبة ومستشفيات المجانين».

عندما مات الماغوط نشرت الأهرام كبرى الصحف المصرية خبره في ثلاثة أسطر في أخبار الصباح في الصفحة الأخيرة، كان مكان نشر الخبر وشكله دليلا على خيبة مصر القوية في العالم العربي، بينما الحياة اللندنية جعلته الخبر الرئيسي على ثمانية أعمدة في الصفحة الأولى، للأسف هكذا بات يتعامل الأهرام الذي كان جسر التواصل بين مصر والعالم العربي مع رحيل واحد من أهم أعمدة الكتابة العربية.

ربما كانت قصة الماغوط مع الصحافة المصرية دليلا على الحالة المزرية التي وصلنا إليها، باستثناء صحيفة محترمة كأخبار الأدب وكاتب هنا وهناك، لم تبن مصر علاقة صحية مع الماغوط ولامع غيره وحياتك، ربما لأن ثقافتنا في عز ضعفها أصبحت منتفخة أكثر من اللازم وعمت وصمّت أن تدرك التطور الثقافي والأدبي المتسارع في العالم العربي، لم يعد أي أديب عربي بحاجة إلى مصر لكي يلمع ويشتهر لأن كثيرا من مثقفي مصر أصبحوا مشغولين باللقاء الفكري مع سيادة الرئيس وبمعاركهم الصغيرة وبمنح التفرغ ومعارض سيادة الوزير، أما القلة القابضة على الجمر فلايطاع لها أمر، ربما لو كان المجلس الأعلى للثقافة قد قرر أن يكرم الماغوط يوما ما لهب له ألف كاتب وصحفي «مش ده اللي شتم مصر.. إزاي تكرموه»، لم

يتنبه أحد إلى أن الماغوط عندما سئل عن أهم شاعر مصري الآن فقال «سعاد حسني»، لم يكن حينها يشتم مصر بل كان يحكي وجيعة مصر ومرارتها، ولو كان الذين شتموه وقطعوه وقاطعوه قد قرءوا له «سأخون وطني» أو «سياف الزهور» لفهموا كيف يفكر ساخر عظيم مثل الماغوط، وكيف كان من المهم أن نتأمل كلامه وإن بدا قاسيا قبل أن ننشب أظافرنا في جسده.

كانت الحرية هي معركة الماغوط الأولى وربما الوحيدة، حرية الرأي وحرية الفكر وحرية الحلم وحرية البكاء وحرية السخرية وحرية الجنون، وربما كان الماغوط يدمر ذاته لأنه أدرك أنه سيموت وقد خسر حربه في كل هذه المعارك، بينما انتصر عليه الحكام وأزلامهم وأدباؤهم «المديوكر» وأبواقهم التي لا تكف عن التعريص، كل هؤلاء تحالفوا على اعتقال الماغوط فاكتشفوا أنهم اعتقلوا جسده لكن قلمه أفلت منهم وظل حرا طليقا، فقرروا أن يقتلوه بالتجاهل ويدعوه يكتب ماشاء ويلعنهم كيفما شاء بينما يعيثون هم في غيهم وجبروتهم وفسادهم،وللأسف نجحت الخطة نجاحا ساحقا، وبدأ الماغوط يدمر ذاته ورحل قبل أن يرى بيارق الحرية ترفرف عالية في بلاده، رحل والأمور ملتبسة إلى حد أصبح فيه دعاة الحرية خونة مدعومين من الخارج، وخالعي الأظافر في أقبية السجون أبطالا للاستقلال والثوابت الوطنية.

قبل سنوات قليلة من رحيله كتب الماغوط نصا مذهلا بعنوان «ترميم قصيدة أو مجد الصغائر» قال في ختامه: « آخر أخباري مثل أولها.. إنني مثل رومل أقاتل على عدة جبهات.. الشعر، المسرح، الصحافة، الأصدقاء، الأعداء.. خائضا حتى الركبتين.. في مستنقع

الفقر والفقراء.. على كل حال جهزي إطارا أخضر لصورتي.. لأنني سأموت في الربيع». والمذهل أن الماغوط مات في الربيع محاربا على كل الجبهات، ليحظى بإطار أخضر لصورته من كل محبيه وعارفي فضله.

أصابني فرح طفولي عندما قرأت أن محمد الماغوط في الستة أشهر الأخيرة من حياته تعود على أن يستمع كل صباح إلى القرآن الكريم، وعندما دخلت عليه قريبته صباح وفاته أخذ يقول لها بصوت عالٍ: إنّا لله وإنّا إليه راجعون»، وطلب منها أن تضع في الكاسيت شريطا لسورة يوسف، في نفس اليوم مات الماغوط جالسا على كرسيه وسماعة التلفون في يد والسيجارة في اليد الأخرى، دون أن يهنأ طويلا بجائزة سلطان العويس، التي حصل عليها متأخرا للأسف وذهبت قبله إلى بعض من لايستحقونها أكثر منه، قلت في عقل بالي ربما وجد الماغوط في كتاب الله عزاءً لأحزانه وقلقه ويأسه، دعوت له بالرحمة وبحسن الخاتمة، سألت الله أن يكتب له حسنة على كل سطر كتبه دفاعا عن الحرية والعقل والإنسانية، وأن يرفعه درجة بكل قصيدة عبر فيها عن حزن الإنسان وحيرته وتمرده.

مات محمد الماغوط وعاش سيّافو الزهور الذين حاربهم طيلة عمره، لكنه ذهب إلى جوار رب كريم هو دون أدنى شك أرحم به وأحن عليه من الأمة العربية التي أعلنها الماغوط قبل سنوات أمة منكوبة بحكامها عجل الله بفرجها منهم.

محاولة لتفسير الغباء!

إذا كنا لا نستطيع منع الغباء من تدمير حياتنا فلماذا لا نحاول تفسيره على الأقل؟

لا أظنك تختلف معي فيما تعرضنا له بفعل الغباء الذي كلما اقتربنا من السير على بداية الطريق الصحيح يدفعنا مجددا نحو طريق خاطئ نكرر فيه نفس حماقاتنا بحذافيرها، وإن أبدعنا فلا يكون إبداعنا إلا سعيا لتجويد الحماقة أكثر. كلما وصل إلى الحكم حاكم جديد قلنا لأنفسنا ونحن راغبون في الراحة من مناهضته «يستحيل أن يكون غبيا ليكرر أخطاء من سبقوه»، لكنه دائما يدهشنا ويكون أغبى مما نتصور، فنندفع لمعارضته ومنع غبائه من إفساد حياتنا، ونحن نتحسر على حظنا المنكوب بالأغبياء، وعلى الراحة التي لا تُكتب لنا أبدا.

في روايته الرائعة (في قبوي) يتأمل سيد أدبـاء الإنسانية دوستويفسكي ظاهرة الغباء الإنساني التي تشهد عليها ملايين الوقائع عبر تاريخ الإنسانية، والتي تجعل البشر ينبذون الطريق الذي يقودهم نحو خيرهم ومصالحهم ليسيروا في طريق غامض مختلف مليء

بالمخاطرات والمصاعب، مع أنهم ليسوا مجبرين على ذلك أبدا. يقول دوستويفسكي: «قد تجد إنسانا يتهكم على عماوة الأغبياء الحمقى الذين لا يفهمون لا مصالحهم الحقيقية ولا القيمة الحقيقية للفضيلة، ولكن ما إن ينقضي ربع ساعة، ربع ساعة على وجه الدقة والتمام، حتى نراه يقوم بعمل سخيف أو يرتكب حماقة، دون أي سبب غير اندفاع داخلي أقوى من جميع اعتبارات المصلحة والمنفعة، يجعله يعمل على نقيض جميع القواعد التي ذكرها، على نقيض العقل، على نقيض مصالحه».

ما الذي يجعل الإنسان يفعل ذلك؟ ربما كان جاذبية الحرية التي تفتنه أكثر من المصلحة فيندفع وراءها؟ ربما كان عطشه الدائم إلى أن يبدو مستقلا حتى لو سار في طريق الشر أكثر من سيره في طريق الخير الذي قد يحقق له المصلحة، هذا ما يعتقده بطل الرواية الذي يصل في النهاية إلى نتيجة تفسر له كل غباوات البشر من حوله، حين يرى أن الإنسان مخلوق غريب الأطوار يمكن أن يتم تعريفه بأنه الحيوان الذي يتميز بالعقوق، فهو إذا وصل إلى السعادة لا يلبث أن يندفع في شذوذ ما، فيدمر نفسه بنفسه ويهوي إلى قاع العذاب لا لهدف سوى أن تكون له الكلمة الأخيرة والقول الفصل، وأن يبرهن لنفسه على أنه إنسان وليس مسمارا في آلة.

يقول دوستويفسكي على لسان بطله: «إن خير تعريف يعرف به الإنسان هو أنه: كائن يمشي على قدمين وعاق، وليست هذه الآفة آفته الرئيسية وإنما آفته الرئيسية أنه سيئ الطبع، وأنه احتفظ بسوء طبعه هذا

منذ عهد الطوفان الكبير، وإذا قلنا سوء الطبع فقد قلنا طيش السلوك، حاولوا أن تلقوا نظرة على تاريخ الإنسانية: ماذا ترون؟ قد تقولون: نرى فخامة وروعة، نعم هذا جائز، وقد تقولون: إننا نرى تنوعا كبيرا، حقا إن هناك شيئا من تنوع يخلب الألباب ويتيه فيه الفكر ولا يصمد لإغرائه مؤرخ، وقد تقولون إننا نرى تشابها ورتابة، ممكن، فالناس في الواقع لا يزيدون على أن يقتتلوا. اقتتلوا أمس، ويقتتلون اليوم، وسيقتتلون غدا، حقا أن في هذا إسرافا في التشابه والرتابة، اعترفوا بذلك. إننا نلقى كل يوم أناسا يظهرون لنا عقلاء حكماء، أناسا يحبون الإنسانية، ويهدفون إلى أن يعيشوا حياة تستوحي العقل وتستلهم مبادئ الشرف بغية أن يؤثروا في أقرانهم بالقدوة الحسنة وأن يبرهنوا لهم على أن في وسع الإنسان أن يلتزم في حياته جانب الحكمة، ولكن ماذا يحدث عندئذ؟ إنكم تعرفون أن عددا من محبي الحكمة هؤلاء ينتهي بهم الأمر عاجلا أو آجلا إلى أن يخونوا أفكارهم وأن يتورطوا في قصص فاضحة».

بعد كل هذا التشريح المؤلم يطرح دوستويفسكي على لسان بطله سؤالا هو سؤال أيامنا هذه بامتياز، كما كان سؤال الأجيال التي سبقتنا، وسيكون سؤال الأجيال التي تلينا إن لم تواجهه بقوة وشجاعة وتتعلم من تجارب الذين خلوا من قبلها: «لماذا نرى الإنسان يحب الهدم والفوضى حبًّا يبلغ حبه للبناء؟ لماذا ينقاد الإنسان لعقوقه ويقوم بتلويث نفسه بارتكاب أخطر الحماقات وأضر الحقارات، مهما غرق في السعادة وأغدقت عليه جميع خيرات الأرض؟»، وبعد تفكير يجد البطل نفسه أمام إجابة وحيدة: «إن الإنسان يفعل كل ذلك لكي يبرهن

لنفسه أنه بشر حر الإرادة وليس إصبع بيانو تلعب به قوانين الطبيعة، ومن أجل إثبات ذلك يسبب شرورا كبيرة ويصب على العالم لعنته، وحتى عندما تستكين نفسه ويحقق شيئا ويقترب من تحقيق هدف، فإنه يخشى بغريزته أن يبلغ هدفه ويتم الصرح الذي يبنيه، فيلجأ إلى تدمير ما بناه، لأنه أصبح غير راضٍ عما حققه، حتى لو بدا ذلك للآخرين نكتة مضحكة، ربما لأن الإنسان نفسه كُوِّن تكوينا مضحكا جدا، تكوينا يبعث على الضحك مثلما تبعث عليه نكتة رخيصة قائمة على اللعب بالألفاظ».

يبدو تفسير دوستويفسكي على تشاؤمه مقنعا للغاية، ليس فقط لأنه يتسق مع المأثورات الدينية ومع الحكم الشعبية المتوارثة، بل وحتى مع أغاني عربي الصغير ورمضان البرنس وكافة البكائيات الشعبية التي يرفع أبطالها شعار «ضربت الودع ما لقتش صاحب جدع» بتنويعات مختلفة، لكن تأملنا لرواية دوستويفسكي ومصير بطلها المظلم بل ولمجمل أدب دوستويفسكي يقودنا إلى نتيجة مهمة، هي أن الاستسلام لتفسير وحيد في فهم الغباء الإنساني والتعامل معه على أنه قدر مقدور لا يستحق المقاومة والكفاح ليس بدوره إلا نوعا أشد وأنكى من الغباء، فكيف لك أن تقاوم الأغبياء وأنت تختار أن تكون منهم؟ وكيف تدعي الذكاء وأنت تظن أن من الممكن تفسير أي شيء في الدنيا تفسيرا نهائيا؟ لذلك يبقى أنك لو انشغلت بمقاومة الغباء بدلا من تضييع الوقت في تفسيره لكان ذلك أفضل لإنقاذ نفسك ووطنك من الأغبياء.

إبراهيم عقل نموذجا!

بالتأكيد، لم تكن صدفة تلك التي جعلت أديبنا الأعظم نجيب محفوظ يختار حكاية المثقف المتحول إبراهيم عقل ليبدأ بها روايته الفذة (المرايا)، لتكون المدخل الرئيسي الذي يقود قارئه إلى درب (المرايا) التي يرى من خلالها تاريخ مصر طيلة أكثر من خمسين عاما، وهو تاريخ تخلصنا من بعض ملامحه، في حين تُعاد ملامح أخرى كثيرة بالتصوير البطيء الممل السمج والحزين كأنها ترفض أن تغادرنا إلى الأبد.

طيلة قراءتك لمرايا نجيب محفوظ سيرافقك صوت المتنبي وهو يقول: «صحب الناس قبلنا ذا الزمانا..وعناهم من شأنه ما عنانا»، وستضحك «ضحكا مجروحا» على بكائيات «الزمن الجميل وأيام زمان الحلوة، وماذا حدث للمصريين وفين المصري بتاع زمان»، وغيرها من البكائيات التي يحب الناس في بلادنا تداولها بوصفها مسلمات غير قابلة للمناقشة. فهاهو نجيب محفوظ يصف على لسان بطل روايته الحقبة التي تلت ثورة ١٩ والتي يحن إليها الكثيرون

بوصفها العصر الذهبي للمجتمع المصري بأنها كانت: «فترة انهيار في الأخلاق والقيم لا نظير لها حتى خُيِّل إليّ في أحيان كثيرة أنني أعيش في بيت كبير للدعارة لا في مجتمع»، بينما يقول بطل آخر بنبرة تسليم يائسة من التغيير: «بتُّ أعتقد أن الناس أوغاد لا خلاق لهم، وأنه من الخير لهم أن يعترفوا بذلك، وأن يقيموا حياتهم المشتركة على دعامة من ذلك الاعتراف، وعلى ذلك تصبح المشكلة الأخلاقية الجديدة هي: كيف تكفل الصالح العام والسعادة البشرية في مجتمع من الأوغاد والسفلة».

في قلب ذلك الانهيار الشامل انطلقت شهرة الدكتور إبراهيم عقل كواحد من أبرز من يدعون إلى التمسك بالمثل العليا، وينتقد بشراسة كل السياسيين والثوريين الذين يراهم خارجين عليها غير مبالين بها، لكنه فجأة وفي لحظة درامية حادة قرر أن ينقلب على مثله العليا: حين وضع يده في يد السفاح إسماعيل صدقي ووافق على أن يتولى منصبا جامعيا كبيرا بعد أن كتب مقالا ينافق فيه صاحب العرش ويشيد بأيادي أسرته على نهضة البلاد، كان انهيار إبراهيم عقل الفرد متوافقا مع انهيار جماعي يصفه نجيب محفوظ بقوله: «كانت أزمة تهاوت فيها القيم إلى الحضيض وتقوضت كرامة الكثيرين من الرجال، ورمى الأبرياء المهزلة بأعين حمراء ولكن حتى صفوفهم لم تبرأ من فساد. كان عصر الزلازل والبراكين المتفجرة. عصر إحباط الأحلام وانبعاث شياطين الانتهازية والجريمة. عصر الشهداء من جميع الطبقات. وظل الدكتور يخطر بيننا متظاهرا بالثبات والشجاعة، يطالعنا بنظرات متحدية تخفي في أعماقها إحساسا بالهزيمة والذنب، وإنَّا نلقاه بالاحترام اللائق بمركزه، على حين نضمر له الاستهانة والسخرية، الاستهانة والسخرية

أجل، لا البغضاء ولا الرغبة في القتل، كما شعرنا بهما نحو كثيرين من رجال السياسة، لم تكن شخصيته تثير شيئا من ذلك، وكان لخفة روحه ومناوراته البهلوانية خليقا بأن يتبدى لنا مهرجا أو دجالا شريرا أو سفاكا للدماء أو عدوا حقيقيا للشعب».

الغريب أن إبراهيم عقل لم يكتف بما ناله من حظوة لدى أسياده الجدد، فقد ظل راغبا في الاحتفاظ بمكانته لدى الجيل الشاب الذي كان يعتبره رمزا مشرقا، لذلك نراه يدعو عددا من طلابه إلى لقاء بمكتبه في اليوم الأخير للعام الدراسي، متطوعا بتبرير تحوله المفاجئ لهم بقوله: إنه وجد في مصر أناسا يخطبون وأناسا يعملون فقرر أن ينضم إلى العاملين، كان طلابه قد قرروا ألا يردوا عليه دفعا لأذاه، لكن طالبا ثريا منهم امتلك الشجاعة ربما لأنه لم يكن يخشى على مصيره وقال له: «إن من يخطب مطالبا بالاستقلال والدستور خير ممن يبني الكورنيش ويسفك الدماء»، فابتسم إبراهيم عقل وقال بشيء من الأسى: ليس كالسياسة مفسدة للعقل، ثم ألقى عليهم خطبة في أهمية سلوك طريق الحقيقة والقيم والتخفف من غلواء الطموح الدنيوي، فأخذ بطل الرواية يقول لنفسه وهو يستمع إلى تلك المحاضرة الجوفاء: «ترى أدعانا الرجل ليعذبنا ويسخر منا؟.. كيف يتحدث عن أن الجلوس تحت شجرة في يوم صافٍ خيرٌ من امتلاك عزبة وهو من باع جميع القيم من أجل منصب؟... وما غادرنا الكلية حتى انفجرنا ضاحكين من عنف المفارقة واليأس، واستبقنا إلى نعته بكل قبيح: الوغد، المهرج، الدجال».

لم يَدُم هناء إبراهيم عقل طويلا بما ناله من عز وسطوة، فقدْ فقدَ ابنيه الوحيدين في وباء الكوليرا الذي اجتاح مصر عام ١٩٤٧، ليدخل

بسبب تلك الفاجعة في سكة تصوف أوصلته إلى الدروشة حتى بات لا يُرى إلا في جوامع الأولياء، وعندما التقاه تلميذه القديم صدفة في الحسين وسأله عن موقفه من ثورة يوليو التي كانت قد قامت للتو، قال له: «هبوط صعود، موت بعث، مدني عسكري، فلتسر الدنيا في طريقها، أما أنا فإني أستعد لرحلة أخرى».

بعد سنوات قليلة رحل إبراهيم عقل إلى جوار ربه، لكنه بقي حاضرا للتأمل والتفكير كنموذج معبر عن المثقف الانتهازي الذي يتميز عن غيره من نماذج الانتهازيين الصغار من مختلف الطبقات والتي قدمها نجيب محفوظ في روايته المدهشة، فهو دائما يرفض مصارحة نفسه بحقيقة تحولاته، ويتصور أنه قادر على خداع الناس طيلة الوقت بالاستمرار في التبرير وتقديم حجج وطنية لكل تحولاته الرخيصة، ظنا منه أن ذلك سيجعله يحتفظ على الدوام بوهج المناضل المدافع عن المثل العليا، دون أن يدري أنه فقد مكانته لدى كثير من الذين آمنوا به وأنه تحول لدى بعضهم إلى أضحوكة مثيرة للقرف والاحتقار، لكنه وهذا الأهم تحول لدى البعض الآخر إلى عبرة يتعلم منها كل منهم كيف ينبغي أن لا يُفتن الباحث عن الحقيقة بشخوص المدافعين عن القيم والمبادئ، وأن يكون قادرا على التفريق بينهم وبين ما يدعون إليه من قيم ومبادئ، فإذا انقلبوا عليها في لحظة انهيار فردي أو جماعي، فقد إيمانه بهم كأشخاص، وليس بما كانوا يدعون إليه من مبادئ وقيم يجب أن يتمسك بها وهو يسير في طريق الحياة المليء بالمنعطفات والمطبات، حريصا على أن يسأل الله تعالى بأحب وأهم ما يجب أن يدعو به إنسان.. «حُسن الختام».

التطرف ملة واحدة

إن طلبت مني نصيحة سأقول لك نصيحتي الدائمة: لا تنصح أحدا في أيام الثورات، وإن اعتبرت تلك النصيحة هروبا من واجب النصح وألححت في طلب النصيحة لتضرب بها عرض الحائط، فنصيحتي المخلصة لك: لا تدع سيطرة المتطرفين من كل التيارات على الساحة تقلقك، فهذه أيامهم وسيأتي يوم قريب يجيبون فيه آخرهم في التطرف والأفورة والغلو، وحتى يأتي ذلك اليوم فلا أمل في أن تقنعهم بخطورة أفكارهم المتطرفة على مستقبل الوطن وعبثية محاولات فرضها على الواقع، صدقني الواقع وحده سيلقنهم دروسه القاسية التي لقنها لمن سبقهم من المتطرفين، وحتى يحدث ذلك عليك أن توفر مجهودك للتعلم والنقد الذاتي وبناء الذات والسعي لمستقبل أفضل لن يحققه سوى العقلاء.

هذه الأيام تروج بضاعة الذين يمارسون التطرف ضد المتطرفين الإسلاميين، لذلك إذا أردت أن يعتبرك البعض ثائرا حقا بمعايير هذه الأيام التي أصبح الكلام فيها أرخص من الفساء، فعليك أن تهيص في

الهيصة وتردد كلاما تافها عن ضرورة إبادة أنصار تيارات الشعارات الإسلامية وتلبيسهم الطرح وإعادتهم إلى السجون، وإذا أردت ألا تتهم بأنك خلية إخوانية نائمة، إياك أن تعلن رفضك لأي أفكار عنصرية متطرفة تعم العاطل والباطل من أبناء هذه التيارات، وتخلط بين من ارتكبوا جرائم تستحق المحاسبة وبين من يحق لهم أن يعتنقوا أي أفكار تحلو لهم حتى لو كنا نرفضها جملة وتفصيلا، إياك أن تعلن رفضك للتلويح بعودة القمع الذي لن يحقق سوى جرنا إلى دائرة العنف الجهنمية التي لسنا قدها، إياك أن تذكر الناس بأن ما يجب أن ننشغل به الآن هو اللجوء إلى القضاء لمنع استمرار وجود جماعة الإخوان في الحياة السياسية بوضعها المشبوه، لتكون تلك خطوة مهمة على طريق طويل علينا خوضه لمحاربة المتاجرة باسم الدين، وجعل المشاريع السياسية وحدها أساسا للتنافس الانتخابي، لا ترفع صوتك بكل هذا فتفسد هوس المتطرفين بأفكارهم القمعية العنصرية التي تتخيل أن الكراهية يمكن أن تخفي من تكرههم إلى الأبد، دعهم حتى الانتخابات القادمة أو التي تليها ليكتشفوا أن هزيمة الأفكار المتطرفة لن تكون بنشر أفكار متطرفة مضادة، بل سيكون فقط بالتنمية والمعرفة والإبداع والسخرية والخيال، دعهم ليكتشفوا مع الوقت أنه مثلما لم ينجح قمع عبد الناصر والسادات ومبارك في إنهاء التطرف الديني إلى الأبد، ومثلما لم ينجح العزل السياسي المفروض بالعافية في إخفاء أنصار الحزب الوطني إلى الأبد، فإن أي قمع أمني أو عزل جبري لن ينجح في تخليص مصر من تيارات الشعارات الإسلامية إلى الأبد.

في كتابه الرائع (المؤمن الصادق) الذي يقدم دراسة مستفيضة لكل الحركات الجماهيرية التي تجتذب المتطرفين إلى صفوفها، يؤكد المفكر الأمريكي إيريك هوفر خطأ الاعتقاد أن هناك تناقضا بين المتطرفين الذين ينتمون إلى حركات تصارع بعضها البعض، فهم على العكس يقفون متزاحمين في زاوية واحدة، لأن الفرق الحقيقي ليس بين مختلف أنواع المتطرفين، ولكن بين المتطرفين والعقلاء الذين يستحيل أبدا أن يلتقوا في الفكر، ومع أن المتطرفين من أنصار التيارات المتصارعة يشتبكون دائما مع بعضهم، لكنهم في حقيقة الأمر أعضاء في أسرة التطرف الواحدة، والكراهية التي يحس بها متطرف نحو متطرف آخر شبيهة بالكراهية بين الإخوة الأعداء، وهو ما يفسر في رأيه سهولة تحول الشيوعي المتطرف إلى الفاشية الوطنية أو التطرف الديني عن أن يتحول إلى ليبرالي معتدل.

يلتقط إيريك هوفر معنى شديد الأهمية يمكن أن نفسر في ظله مولد الكراهية الهستيرية المنصوب في أرجاء الوطن، حين يقول: إن نقيض المتدين المتعصب ليس الملحد المتعصب، ولكن المتشكك الذي لا يتخذ موقفا محددا من الدين، لأن الملحد متدين من نوع خاص، فهو يعتنق الإلحاد بحماسة وقوة كما يعتنق المرء دينا جديدا، يقول رينان: «عندما يكف العالم عن الإيمان بالله فإن الملحدين سيكونون أشد الناس تعاسة»، ومن نفس المنطلق، فإن التجارب التاريخية أثبتت أن نقيض المتطرف الوطني ليس الخائن، وإنما المواطن المنطقي المعتدل الذي يحب الحياة ولا يتطلع إلى المغامرات البطولية، وقد ثبت أن هناك خيطا رفيعا يفصل بين الأفكار

القومية المتطرفة والخيانة، عندما اتضح أن كثيرا من الخونة الذين تم اكتشافهم خلال الحرب العالمية الثانية كانوا يحملون أفكارا رجعية متشددة، وانحيازهم إلى العدو كان من باب رغبتهم في تحطيم العالم الذي يكرهونه، وهو ما يجعل هوفر يقول: إن من عاصر فترة هتلر يدرك أن الروابط التي تجمع بين الرجعي والراديكالي أكثر من الروابط التي تجمع أيا منهما بالليبرالي أو صاحب الفكر المحافظ العادي.

لذلك ينصحك إيريك هوفر ألا تحاول إبعاد المتطرف عن قضيته بالمنطق والنقاش، لأن المتطرف يخشى دائما أنصاف الحلول، ولذلك يستحيل إقناعه بضرورة تخفيف حدة إيمانه المطلق بما يتصور أنه قضية مقدسة، فالمتطرف يشعر بالنقص وفقدان الثقة في النفس، ولذلك يجد متعته في الالتصاق بأي كيان متشنج يحتضنه، ويدين بالولاء الأعمى لهذا الكيان، ليس بالضرورة لأنه مقتنع بأفكار هذا الكيان وإمكانية تحققها على أرض الواقع، بل لأنه يعرف أنه لا يساوي شيئا خارج الكيان المتطرف الذي ينتمي إليه، ولذلك فهو يفزع من أي أفكار متسامحة ويعتبرها علامة الضعف والسطحية والجهل، ويختار الاستسلام الكامل لما يتصور أنه فكرة مقدسة يخوض من أجلها حربا متعصبة، ويظل هكذا حتى يهزم الواقع كيانه المتطرف شر هزيمة، والمدهش أن المتطرف بعد هزيمة أفكار كيانه المتطرفة لا يجد راحته إلا في الانضمام إلى كيان متطرف جديد، ولذلك كان المتطرفون السابقون في ألمانيا واليابان المهزومتين أشد تجاوبا مع الدعوات المتطرفة الجديدة سواءً كانت يسارية أو كاثوليكية، لأن الأفكار الديمقراطية لا تقدم للمتطرفين قضايا مقدسة يمكن الالتحام

بها، ولا جمهورا متماسكا يستطيع المرء أن يذوب فيه ويلغي فرديته، ليصبح رقما في القطيع الذي يحارب قطعانا أخرى يظن أفرادها أيضا أنهم يمتلكون الحقيقة المطلقة.

لا تخرج قبل أن تقول الحمد لله على نعمة العقل، وكفى بها من نعمة.

كتاب أورهان باموق الأسود.. ونصائح إلى كاتب عمود!

هناك كُتّاب تُحِبهم من أول نظرة، وهناك كُتّاب يأتي حُبُّهم بالعِشرة والتفاهم، وهناك كتّاب يأتيك حبهم فجأة في ظروف غامضة، بعد أن تكون قد أعلنت كراهيتك لهم على الملأ. الكاتب التركي العظيم أورهان باموق كان من النوع الأخير بالنسبة لي، فقد كنت كارها عتيدا له، لدرجة أنني تورطت بخفة في مهاجمته فور حصوله على جائزة نوبل للآداب، ولم أكن قد قرأت له سوى روايتين فقط الأولى: وجدتها لا بأس بها هي رواية (الحياة الجديدة) التي اكتشفت فيما بعد أن مشكلتي معها كانت في رداءة الترجمة التي لم تكن عن التركية مباشرة، بل كانت عن الفرنسية (قرأت فيما بعد ترجمتين متميزتين لها عن التركية مباشرة إحداهما لبكر صدقي والأخرى لمترجمي المفضل عن التركية عبد القادر عبد اللي)، أما الرواية الثانية: فقد فشلت في إكمال قراءتها لأول مرة ربما بسبب انطباعي السلبي الذي تكوّن لديّ من التجربة السابقة، لكن الأيام دارت فيما بعد، وعندما أعدت اكتشاف أورهان باموق أصبحت واحدة من أجمل الروايات

على الإطلاق بالنسبة لي، أتحدث عن رواية (اسمي أحمر) التي كانت من أهم أسباب حصول باموق على جائزة نوبل، والتي وجدت أن ظاهرة كراهيتها في المرة الأولى للقراءة ثم حبها بعد ذلك أمر شائع بين أصدقائي من عشاق فن الرواية.

أدين بالفضل في إعادة اكتشافي لأورهان باموق إلى بروفيسور أمريكي متخصص في العمارة، ركبت معه ذات يوم عبّارة متجهة من إسطنبول إلى جزر الأميرات (في مواضع متفرقة من كتابتي ستدرك كم أدين بالعرفان لفضيلة الرغي مع من تجمعني بهم الظروف في مناكب الأرض)، يومها بدأ حديثي مع البروفيسور الأمريكي عن موضوع كتابه الذي يبحث فيه فن عمارة المساجد في تركيا، ثم امتد إلى الحديث عن رأيه في رواية (اسمي أحمر) التي كان يحمل نسخة منها، وعندما قال لي إنها ألهمته الكثير في موضوع كتابه ولذلك يقرأها للمرة الرابعة، استفزني الرقم فقلت له: إنني بصراحة لم أكمل قراءتها، وبدأت أحدثه عن الكتّاب الروائيين التركيين الذين أحبهم أكثر مثل يشار كمال وعزيز نيسين وفقير بايقورت، ومظفر أزغو ناصحا إياه أن يقرأ لهم لأنه سيجد في أدبهم صورة أكثر صدقا وأقل سياحية عن تركيا وشعبها، قال لي: «قرأت بعض ما كتبوه وأحببته لكن صدقني أورهان باموق مختلف ولا يعطي صورة سياحية لتركيا كما تتصور»، قررت أن أتحفه بنظريتي في أن الخواجات يحبون باموق لأنه يكتب خصيصا لهم، فقال لي ضاحكا: «لماذا إذن نحب أديبكم العظيم نجيب محفوظ، هل كان يكتب لنا خصيصا؟»، واتضح أن الرجل مغرم بنجيب محفوظ أيضا، وربما لذلك قررت أن أتوقف

عن الرغي وأستمع إليه وهو يقول: «لكل روائي مفتاح تدخل به إلى عالمه الروائي، ويختلف هذا المفتاح من قارئ لآخر، فبعض القراء لم يفلحوا في قراءة «يوليسس» لجيمس جويس إلا بعد أن أحبوا مجموعته القصصية «أهالي دبلن»، والبعض لم يفعل إلا بعد أن قرأ «صورة الفنان في شبابه»، والبعض الآخر لم يجد له مفتاحا حتى الآن، وأنا من هؤلاء»، ضحكت وأنا أقول له: إنني بعد أن انكسر المفتاح في قفل «يوليسس» أو «عوليس» كما نسميها، قررت أن الحياة يمكن أن تستمر بدونها هي وجيمس جويس أيضا، قال لي: «ستستمر الحياة على أي حال، لكن إذا كنت تريد مفتاحا لأورهان باموق، فعليك بكتابه عن إستانبول، صدقني بعد أن تقرأه ستفهم عالمه الروائي جيدا وأثق أنك ستغير رأيك فيه، هذا على الأقل ما حدث لي».

لم آخذ الحديث يومها بجدية، ولذلك لم أحرص على تبادل العناوين مع الرجل، لكنني لو فعلت لكنت قد شكرته من كل قلبي، لأنني بعد أن بدأت قراءة كتاب (إسطنبول الذكريات والمدينة) الذي ترجمه المترجم القدير عبد القادر عبد اللي وأصدرته دار المدى العراقية، تحولت من قراءته على مضض إلى الافتتان الشديد به، فقد زادني حبا في إسطنبول التي لم أكن أحبها، بقدر حبي لغيرها من المدن التركية الأصغر حجما والأقل كثافة سكنية، وجدت باموق في كتابه يقدم إحالات رائعة إلى رواياته التي كتب فيها عن مدينته الأحب إلى قلبه إسطنبول، فشجعني ذلك على إعادة قراءته، ولحسن الحظ بدأت صدفة بروايته الرائعة (ثلج) التي صدرت عن منشورات الجمل والتي ستجد فيها صدى واقعنا المترنح بين كراهية الناس

لنتائج الديمقراطية وحنينهم إلى العسكر وخوفهم من سيطرة النزعات الفاشية على حياتهم لتفسدها إلى الأبد، قررت بعدها قراءة أعماله بالترتيب، ولكي لا أكرر خطئي في السابق، أكتفي بأن أقول لك إنك قد تحب تلك الروايات كلها وقد تحب بعضها مثلما أحببت له (ثلج) و (اسمي أحمر) و(الكتاب الأسود) و(ألوان أخرى) و (إسطنبول الذكريات والمدينة).

لقد تذكرت واحدة من أجمل روايات باموق وهي رواية (الكتاب الأسود) عندما طلبت مني مجلة ثقافية أن أكتب شهادة عن تجربتي على مدى سبع سنوات في كتابة العمود اليومي، على أن تتضمن نصائح أسديها لمن يفكر في خوض تجربة كتابة العمود اليومي، فذكرني ذلك برواية باموق التي يحكي فيها عن كاتب عمود يومي في صحيفة تركية واسعة الانتشار، كان يعاني بشدة من معاملة الناس له بصفته ليس شخصا عاديا بل الرجل الذي يعرف كل شيء لأنه يكتب عمودا يوميا، كان يرغب في أن يصرخ في وجوه الناس: «لا يعني أنني أكتب عمودا أنني أعرف كل شيء»، لعلهم يتجنبون سؤاله عن كل شيء كأنه يمتلك إجابة عليه، لكنه كان يجبن عن ذلك فيصمت ويستسلم لقدره الذي يجعل الحلاق يسأله أسئلة تتراوح بين «إذا اندلعت الحرب فهل يمكننا التغلب على اليونان؟»، «هل صحيح أن زوجة رئيس الحكومة عاهرة؟»، «هل الفكهانية هم سبب الغلاء؟»، وهي أسئلة يقول السيد جلال عنها: «قوة مجهولة لم أستطع بأي شكل معرفة مصدرها لا تسمح لي بالإجابة عن هذه الأسئلة، ويتمتم مكاني كاتب العمود الذي في المرآة والذي أنظر إليه أنا أيضا مندهشا

«السلام أمر جيد»، «يجب معرفة أن إعدام الناس لا يخفض الأسعار».
أنا أكره كاتب العمود هذا الذي يعتقد أنه يعرف كل شيء، ويعرف حين لا يعرف أنه لا يعرف، وتعلم بسذاجة التسامح بزوائده ونواقصه، وكنت أكره أيضا الحلاق الذي يجعلني بكل سؤال من أسئلته السيد جلال كاتب العمود، وبدلا من أن ينفجر في الحلاق يكلم نفسه قائلا له في سره: «نعم أيها السيد الحلاق، إنهم لا يسمحون للإنسان بأي شكل بأن يكون نفسه، لا يدعون الإنسان أن يكون نفسه، لا يدعونه في أي وقت». لقد كان السيد جلال يعيش دور السيد كاتب العمود بين الناس، بينما كل ما يتمناه بداخله أن يبقى وحده بعد يوم طويل حتى المساء جالسا على أريكة مستمتعا بكينونته نفسه، كأنه مسافر عاد إلى بيته بعد سفر طويل مليء بالمغامرات طال سنوات.

في أجمل فصول الرواية يحكي باموق عن لقاء يحدث بمحض الصدفة بين جلال وثلاثة من كتاب الأعمدة الذين حققوا نجاحا أسطوريا في الصحافة التركية، كان كل منهم قد تجاوز الخامسة والسبعين من عمره، وكان يجمعهم تاريخ طويل من العداء على صفحات الصحف، حيث سبق أن اتهموا بعضهم والكتاب الآخرين بكل شيء بدءا من الإلحاد إلى اللوطية إلى الشيوعية إلى الأمركة إلى الردة بل وحتى الوجودية. في يوم لقائه بهم كانت الأضواء قد انحسرت عنهم وقتها، بينما كان هو مقروءا أكثر ويتلقى رسائل أكثر من القراء، وكما يقول هو: «وطبعا كنت أكتب أفضل منهم»، يومها قرر الكتاب الثلاثة أن يوجهوا له نصائح ينبغي عليه أن يستفيد منها في كتابة العمود، وقد قام بتدوين نصائحهم على هامش مجلة ذهب

سريعا ليحضرها لعله يستفيد من هذه النصائح في تطوير كتابته. عندما تقرأ النصائح التي أسداها الكتاب الثلاثة الذين اختار باموق لكل منهم اسم سلطان من سلاطين تركيا كاسم مستعار، تدرك أنها كانت حيلة روائية ذكية لتلخيص مزاج المواطن التركي المتقلب خلال فترة شديدة التقلب والخطورة في تاريخ تركيا الحديث، ولعلك عندما تقرأ تلك النصائح تجد تشابها كبيرا بين ذلك المزاج وما نعيشه نحن أو هكذا ظننت ولا أدري إذا كنت ستوافقني الظن أم لا.

جاء في نصائح الكتاب الثلاثة الأكثر خبرة للسيد جلال كاتب العمود ما يأتي: «الكتابة من أجل متعة القراءة فقط تترك الكاتب في بحر مفتوح بدون بوصلة. كاتب العمود ليس الحكيم إيسوب وليس مولانا الرومي، العبرة تستخلص دائما من القصة، ولا تستنتج القصة من العبرة. لا تكتب بحسب ذكاء القارئ بل بحسب ذكائك. الحكاية بوصلة (استطراد واضح للنصيحة رقم ١) اقتني كتب الأمثال والمقولات والطُرَف والأشعار والعبر. عليك ألا تبحث عن العبرة كي تُتَوِّج بها كتابتك بعد أن تكتبها، بل بعد أن تجد العبرة اختر الموضوع الذي ستدرجه تحتها. لا تجلس إلى طاولة الكتابة قبل أن تجد جملتك الأولى. ابدأ الكتابة عن الميت بتمني الرحمة ولا تُنهِها بتحقيره. لتكن لك عقيدة صادقة. إذا لم تكن لك عقيدة صادقة اجعل قارئك يؤمن بأن هناك عقيدة صادقة لك. ما ندعوه القارئ هو طفل يريد الذهاب إلى محل الحلويات. القارئ لا يعفو عمن يشتم محمدا، والله يُشِلُّه. أحبَّ الأولاد يُحبُّك القراء. القارئ يعاني من تكاليف الحياة، ذكاؤه العمري

في الثانية عشرة، متزوج، أب له أربعة أولاد، رب أسرة طيب. القارئ ناكر للجميل كقط. القط حيوان ذكي وغير ناكر للجميل، يعرف أنه لا يمكن الوثوق بالكتّاب الذين يحبون الكلاب. اهتم بمسائل البلاد وليس بالقطط والكلاب. اعرف عناوين القنصليات. ادخل في السجالات الكتابية ولكن عندما يمكنك إيلام خصمك. ادخل في السجالات الكتابية عندما تستطيع جذب صاحب الجريدة إلى جانبك رد على رسائل القراء، وإذا لم يكن هناك من يرسل رسالة فاكتبها أنت ورد عليها. لا تنس أن شهر زاد ملهمتنا وأستاذتنا، وأنك تدس حكاية من خمس إلى عشر صفحات بين الأحداث المدعوة حياة. اقرأ قليلا ولكن بحب، فتبدو أنك أكثر قراءة من الذي يقرأ كثيرا بملل. كن متحفزا واعرف الآخر ولتكن لك ذكراك فعندما يموت الرجل تكتب عنه. احذر من هذه الجمل ما استطعت: «مهنتنا فيها إنكار للجميل ومقالاتنا تُنسى بعد يومين. كيف تمر السنوات لو كان المرحوم حيا ماذا سيقول عن هذه السفالة؟ هكذا يعملون هذا في أوروبا، كان ثمن الخبز أو كذا قبل سنة بكذا بعد ذلك ذكرتني هذه الحادثة بكذا». كل ما هو فني في العمود ليس منه، وكل مافي العمود ليس من الفن. إذا كتبت بصعوبة تصاب بالقرحة. وإذا أصبت بالقرحة تصبح فنانا. عليك أن تصير عجوزا في أقرب وقت. صِر عجوزا لتكتب مقالة خريف جميلة. الأسس الكبرى الثلاثة هي بالطبع: الموت، العشق، الموسيقى. ولكن يجب اتخاذ قرار في البداية حول ما هو العشق. ابحث عن العشق. العشق بحث. خبئ الحب لأنك كاتب. اختبئ ليحكموا أن وراءك سرا. أشعر الآخرين بأنك صاحب سرٍّ لكي تحبك

النساء. اخرج إلى الشوارع وانظر إلى الوجوه، هذا موضوع. أشعر الآخرين بأن هناك أسرارا تاريخية، ولكنك مع الأسف لا تكتبها. لا تنس أن العالم كله عدونا. هؤلاء قوم يحب باشواته وطفولته وأمهاته كثيرا، أنت أيضا أحبها لا تستخدم قواعد الكتابة لأنها تقتل أسرارها. لا تنس أنك شيطان وملاك ودجال لأن القراء يملون من الطيب تماما والسيئ تماما. عندما يفهم القارئ أن الدجال يبدو مثله وينتبه مرتعدا أن الذي ظنه مخلصا هو دجال، وأنه مخدوع، فإنه والله يطلق عليك النار في زقاق مظلم. نعم لهذا عليك أن تخفي السر، واحذر من بيع سرك المهني. سرك هو العشق لا تنس هذا، والعشق كلمة مفتاحية، لا تخف من الانتحال لأن السر كله في شح قراءتنا وكتابتنا مخفي في مرآة تصوفنا. عندما تتقدم في السن يوما ما، وتسأل عما إذا أمكن للإنسان أن يكون نفسه، ستسأل نفسك عما إذا فهمت ذلك السر. لا تنس أن عدم الفاهمين بقدر الفاهمين والصابرين على الحافلات القديمة والكتب غير المتنظمة.

كانت هذه نصائح الكتاب الثلاثة للسيد جلال كاتب العمود كما نقلها أورهان باموق مختبئا خلفهم، ولا أدري إذا كنت ستستفيد منها إذا حكمت الظروف عليك أن تكون يوما ما كاتبا لعمود يومي، لكنك إذا سألتني عن نصائحي أنا باعتباري تورطت في تجربة كتابة العمود اليومي منذ عام ٢٠٠٧ في صحف (الدستور) ثم (المصري اليوم) ثم (التحرير) ثم (الشروق)، فنصيحتي الوحيدة لك أن تقرأ نصائح هؤلاء الكتّاب الثلاثة التي نقلها أورهان باموق وأن تفكر فيها جيدا، فأغلبها حقيقي جدا وصادق جدا للأسف الشديد، وإذا لم تدفعك هذه

النصائح للتراجع بعد ذلك وظللت مصمما على اقتراف كتابة العمود اليومي، فنصيحتي لك أن تنسى تلك النصائح كلها كأنك لم تقرأها أبدا، وتبدأ في الكتابة كأنك تعيش أبدا، وتستمر في القراءة كأنك ستموت غدا.

هيًّا نقتل فيل الوالي!

يمكن أن ينجو الحاكم من أي شيء إلا من كراهية عامة الناس له، يستطيع أن يصمد في وجه الانقلابات العسكرية وكراهية النخبة السياسية بل وتآمر القوى الدولية، لكن غضب الجماهير العريضة من أبناء شعبه وحده سيطيح به، إذا قرر الناس أنه صار عبئا تجب إزاحته، وأن صفاء بالهم ربما يعود إذا اختفى وجهه العكر عن أنظارهم.

في روايته القصيرة المكيرة (فيل الوالي) يحكي الروائي العظيم إيفو أندريتش عن بلدة بوسنية اختبرت أشكالا وألوانا من ظلم الولاة لكنها تمكنت من الصبر والاحتمال، حتى جاءها يوم أغبر تولى أمرها فيه حاكم تركي جديد كانت سمعته القمعية قد سبقت وصوله إليها، لكن أحدا لم يتصور أنه سيصل إلى البلدة مصطحبا معه فيلا ليكون حيوانه المدلل، ظن أهل البلدة في البدء أن تربية الفيل ليست سوى هواية غريبة لهذا الحاكم القادم من المجهول، لكنهم اكتشفوا أنها كانت وسيلة جنونية منه لمضايقتهم وتكديرهم كل يوم وهم يرون الفيل يسير في شوارع البلدة ويعيث في أسواقها فسادا وينشر الفزع في

نفوس الأمهات والأطفال، ولم يكن الحاكم المغتر بقوته يدرك أن ما ظنه وسيلة لفرض مظاهر الطاعة تحول إلى وسيلة لصناعة الكراهية.

يقول إيفو أندريتش واصفا كراهية الشارع التي لا يلقي الحكام بالا لخطورتها «عندما تنصب كراهية الناس على شيء أو أمر معين فإنها لا تتخلى أبدا عنه، ولا تتوانى عن التفكير الدائم فيه، فتصبح الكراهية غاية بحد ذاتها، حتى عندما يصير هذا الشيء أو الأمر موضوعا ثانويا ولا يبقى منه إلا الاسم فقط، تلك الكراهية تتبلور وتنمو تلقائيا وفق قوانينها ومتطلباتها، وتصبح ذات سلطان وقدرة على الإبداع والزهو، مثل حب مُحرّم، وتجدُ مناهل وحوافز جديدة، وتوجد بنفسها الذرائع لمزيد من الكراهية. وحين يكره الشارع مخلوقا ما، كرها عميقا مريرا، فإن هذا المخلوق يجب أن يزول إن آجلا أو عاجلا. ويكون هناك إصرار شديد على ذلك حتى لو تمكن هذا المخلوق من تدمير السوق من أساسها وإفناء رجالها عن بكرة أبيهم».

كراهية الناس كما يصفها إيفو أندريتش تبدأ صماء وعمياء لكنها لا تظل بكماء، ولذلك فقد قرر أهل البلدة أن يعلنوا عن كراهيتهم بادئين ذلك بعبارة صغيرة «طفح الكيل، بهذه العبارة، كان الحديث يبدأ عادةً. على أن هذه العبارة، لم يكن يُنطق بها لأول مرة، فليس ثمة جيل لم يطفح الكيل أمام عينيه، مرة بل مرات عديدة. على الرغم من صعوبة التحديد بدقة، متى كان الكيل يطفح، ومتى كان يُنطق بهذه العبارة، فهي بمثابة زفرة عميقة أو حسرة دفينة، تخرج من بين الأسنان، وهي في الواقع صادقة وحقيقية في نظر من ينطق بها. يقول أحدهم للآخر

ناصحا: لو أنزل كل إنسان ضربته بمن هو في متناول يده، أو بمن يزعجه لن تكون هناك نهاية لذلك ستتسع المعركة وتشمل كل العالم. فيرد عليه: مالي أنا والعالم، تشمله أو لا تشمله، فليكن».

هكذا هي الكراهية، وهذه هي لعنتها، عندما تتمكن من نفوس الناس فإنها تقوم بتشويههم، وتجعل الإنسان كما يقول أندريتش «مُلحا في رغبته في الانتقام، مبتكرا للحيل التي لا بد أن توصله إلى هدفه»، لذلك بدأ الناس يجتمعون ويخططون لقتل فيل الوالي ليفقدوه أعز ما يملك، فجأة تحول الناس البسطاء المسالمون الذين لم يفكروا من قبل في العنف إلى أساتذة في التخطيط للشر والسعي لتنفيذ مخططاتهم، فقط ليشعروا أنهم تمكنوا من الانتصار على الحاكم الذي كرهوه كراهية عميقة ومريرة، وعندما فشلت محاولاتهم في تسميم الفيل زادت كراهيتهم وبدءوا يفكرون في أساليب أكثر عدوانية وتهورا، لكن الحل النهائي جاءهم عندما هبطت عدالة السماء على القرية وحملت قرارا مفاجئا من السلطان بالإطاحة بالوالي الذي مات كمدا من صدمته، وللمفارقة لحق به فيله فسقط ميتا هو الآخر.

للأسف، يبدو حال أهل تلك البلدة أسعد حالا من حال أهل بلادنا، فالكراهية التي برع حاكمهم في صنعها انصبت على شخصه فقط، لأنه كان فردا قادما إليهم من الخارج ولذلك توحد أهل البلدة في كراهيته والتخطيط لأذيته، أما الكراهية التي برع من حكمنا (محمد مرسي) في صنعها في نفوس الناس لم تعد موجهة نحو شخصه فقط، بل أصبحت موجهة نحو عشيرته الإخوانية وكل من يؤيدها ويتحالف

معها، خاصة أن مرسي وأهل جماعته برعوا منذ خيانتهم الأولى للثورة في صناعة الكراهية، واستخدموا على مدى عامين ونصف مع معارضيهم أقذر أسلحة التكفير والتخوين والطعن في الأعراض، وظلت ممارساتهم تلك تشكل عبئا متزايدا على كل من يؤمن بأفكار التعايش وقبول الآخر والتوافق، وكلها أفكار تحولت يوما بعد يوم إلى هدف للسخرية والشتيمة والأصوات الحلقية، إلى أن أُزهِقت روحها مع الأرواح التي أزهقتها سياسات مرسي وعشيرته.

الأخطر من كل ذلك أن الكراهية التي صنعها مرسي لم يعد ممكنا للأسف أن تزول فورا برحيل شخصه عن المشهد طوعا أو جبرا، بسهولة أو بعد عناء، فطالما ظلت جماعة الإخوان تتعامل بوصفها «الفئة الناجية والجماعة الربانية» التي يحق لها أن تفعل ما تريد كيفما تريد، ستظل كراهية عموم المصريين لها تتنامى وتتصاعد، وستشوه هذه الكراهية أرواح الكثيرين لتفقدهم إنسانيتهم وتزيد من استباحتهم لما كانوا يعتبرونه حتى وقت قريب محرمات لا يصح ارتكابها، وستبقى نتائج تلك الكراهية العقبة الأخطر في سبيل بناء أي توافق وطني جديد، كذلك الذي شهده ميدان التحرير في أيامه المجيدة التي باعها الإخوان وحلفاؤهم من أجل مكاسب سلطوية، مع أن كل مكاسب الدنيا لم تكن لتوازي أبدا فرصة تحويل «نموذج ميدان التحرير» قبل تشويهه عمدا إلى أسلوب حياة يتعايش فيه المصريون مهما اختلفوا عن بعضهم، وهو نموذج سنكتشف للأسف في المستقبل بعد خسارتنا للمزيد من الدماء والدموع والأرواح أنه كان ولا يزال وسيظل طريقنا الوحيد نحو الخلاص.

سيادتك خط ولا دايرة؟

«وجدتها وجدتها.. هو ده بالضبط تلخيص مشكلتنا في مصر.. لأ ياربي ده تلخيص لمشكلة الإنسان في الحياة نفسها»، هكذا هتفت مع أنني لم أكن أستحم في البانيو وأتأمل في الملكوت كما كان يفعل المرحوم أرشميدس، بل كنت أقرأ رواية رائعة اسمها «قصر القمل» للكاتبة التركية الرائعة إليف شفق.

إذا كنت قد سافرت إلى تركيا أو قرأت كثيرا في الأدب التركي فلن تستغرب كيف يمكن أن يجد الإنسان تلخيصا لمشاكل مصر في رواية تركية. وإذا كنت قد قرأت على سبيل المثال لا الحصر ثلاثية عمنا نجيب محفوظ أو رواية (جسر على نهر درينا) لعمنا إيفو أندريتش أو كافة أعمال عم الكل تشيكوف، فلن تستغرب كيف يمكن أن يجد الإنسان تلخيصا لمشكلته بل وحلا لها في رواية وليس في كتاب علم نفس أو علم اجتماع، فقد قدم هؤلاء العظماء وكثيرون غيرهم أرفع نموذج للأدب الروائي عندما يتجاوز وظيفة الإمتاع والتسلية، أقول يتجاوزها ولم أقل يفقدها، لكي تصبح الرواية رحلة يبحر فيها الإنسان

في نفسه وواقعه وأحوال الدنيا والبشر من حوله، كأنه عالم يمسك في يده نظارة معظمة أو ينظر من خلال ميكروسكوب أو تلسكوب ليكتشف تفاصيل مبهرة لم يكن سيدركها بعينه المجردة.

رواية إليف شفق التي ترجمها السوري القدير عبد القادر عبد اللي ليست عن مصر طبعا، وإن كان ذكر القاهرة يرد في مقطع من مقاطع الرواية بوصفها «المدينة الأكثر صخبا والتي لا يسمع أهلها صخبها الهادر»، هي رواية عن تركيا المعاصرة، ولكنها كشأن الكثير من الروايات العظيمة تضعك وجها لوجه أمام الخديعة التي انطلت علينا، أو بلعناها بمزاجنا لأن تصديقها «أريح»، خديعة أن مشاكلنا في مصر مستحيلة الحل وغير موجودة في أي مكان في العالم، بينما لو قرأنا أي عمل أدبي عظيم سنجد أننا لسنا بدعا بين البشر، وأن كتالوج الحل في أيدينا نحن، ويمكن أن نمتلكه كما امتلكه باقي خلق الله الذين أدركوا أن خلاصهم في الديمقراطية الحقيقية التي برغم كل عيوبها إلا أنها تظل أفضل نظام بشري صالح لحل مشاكل الإنسان؛ لأنه يضمن إلى أبعد الحدود الممكنة بشريا قيما إنسانية مهمة مثل تداول السلطة وحرية التعبير والتفكير والبحث العلمي وتكافؤ الفرص، على شريطة أن يتذكر الإنسان أنه لن يجد حلا لمشاكله يمكن أن يسقط عليه من السماء، بل لا بد من أن يدفع ثمن هذا الحل ويسعى لتحقيقه بكل ما أوتي من قوة وجهد، وربما كانت أول خطوة يقوم بها هي أن يتذكر دائما أنه يجب أن يكون خطا مستقيما، وليس دائرة.

هذا بالضبط ماتقوله إليف شفق على لسان أحد أبطال روايتها الذي كان يناقش مع زملائه فكرة الحظ وعلاقته بشعور الإنسان أن حياته عادلة أو أنها ظلمته ولم تعطه مايستحق، كانوا مؤمنين إلى حد أغاظه بفكرة الحظ التي قال ميكيافيللي أنها تدير نصف الحياة وليس ثمة مانستطيع فعله إزاء ذلك، فرد عليهم قائلا: «لم أفهم لماذا عَلِقتُم إلى هذا الحد عند الحظ؟ القضية ليست قضية حظ وما حظ، بل هي الفرق بين الدائرة والخط المستقيم، إذا اعتقدت بأنك تسير على خط مستقيم، فستعتقد بأنك تترك وراءك أمورا ما، وأنك ستصل إلى مكان ما، ولكنك إذا فهمت الحياة بحسب الدائرة، فلا يمكن أن يكون هنالك مايُدعى تقدما، هل أنت متصالح مع التكرار، أم لا؟ هذه هي القضية، رجل مثل ميكيافيللي لايمكن أن يكون متصالحا مع التكرار، ماذا يعني هضم التكرار؟ هل يعني أنك ستعيش الحياة التي تعيشها الآن مرة أخرى، ولن يكون الغد مختلفا عن اليوم إلى هذا الحد، إننا نصل إلى السؤال الذي طرحه نيتشه حول روسو، إذا نزل إبليس صغير جدا من جهنم في الساعة الأكثر وحدة من عمر الوحدة، ووقف أمامك وقال: لاتخف يا أخي، أنا أضمن لك عدم وجود ما يدعى الموت، لا يوجد سوى التكرار فقط، وستعيش من جديد كل ما عشته حتى الآن، كما عشته بالضبط، مرة أخرى بعد ذلك، وبعدها مرة أخرى وسيستمر هذا إلى الأبد، فماذا ستشعر حينئذ؟ كم منّا من يستطيعون تحمل عيش الحياة مرارا وتكرارا؟ لايمكن حتى للذين يؤمنون بدلال الحظ أن يعيشوا لحظات جنون كهذه، إن رجلا مثل ميكيافيللي سيقطع الدائرة من مكان ما، ويحولها إلى خط مستقيم من أجل تمكنه من تحمل الحياة، بعد ذلك تتولد فكرة التقدم، والفردية أيضا».

أي والله يا ست إليف، لذلك نحن نسأل أنفسنا كثيرا ليه إحنا بس دونا عن بلاد الله المتقدمة ما نعيده نزيده، مشاكلنا في أوائل القرن العشرين هي نفس مشاكلنا في أوائل القرن الحادي والعشرين، كل يوم ستجد من يستشهد لك بفقرة تصف أحوالنا فتنبهر من عمق الوصف وهو يدخر لك مفاجأة أن هذه الفقرة كتبت منذ مائة سنة في صحيفة كذا، فتُحبط وتظن أن بنا عيبا خلقيا اختصنا به الله، وتنسى أن المشكلة فينا نحن، نحن الذين قررنا أن نعيش حياتنا كدائرة، وليس كخط مستقيم، لا أحد فينا يفكر كل يوم فيما سيتركه خلفه، ولا إلى أين ينبغي أن يصل، هو يسير وخلاص كأنه يؤدي دورا في مسرحية عبثية لايريد حتى أن يعلم كيف ستنتهي، لو لم نكن كذلك لما قبلنا أن نترك مصيرنا لأناس بهذا القدر من الرداءة، رداءة الفكر والطموح والسلوك، أناس ليس لديهم أي خيال، لأنهم مثلنا بالضبط يعيشون كأنهم دوائر، ولم يخطر على بالهم أبدا أن يكونوا خطوطا مستقيمة، فانحرفوا وانحرفت بهم بلادنا وستظل تواصل الانحراف إذا لم نتعدل نحن أولا، ونتوقف عن عار الفرجة والاكتفاء بالصراخ الذي لن يخرجنا أبدا من هذه الدائرة الجهنمية التي آن أوان أن نكسرها، الآن وليس غدا.

حول قبر الزعيم!

لا يحن الناس إلى المستبدين لأنهم يحبون العبودية لله في الله، بل لأنهم ببساطة يحنون إلى الحياة الأقل تعقيدا التي كانوا يعيشونها في عهد المستبد الذي كان يعرف كيف يلقي إليهم بالفتات الكافي لإبقائهم على قيد الحياة، لذلك عندما يصبح ذلك الفتات نفسه صعب المنال، فلا تحدث الناس إذن عن خطورة الاستبداد على فرصتهم في نيل حقوقهم كاملة، لأن قرارا واحدا يسهل حياتهم ويجعلها أقل تعقيدا سيكون أفضل من ألف خطبة عصماء عن فضائل الحرية ومثالب الاستبداد.

دعني أحكي لك هذه الحكاية التي وقعت في يوم ٢٦ يناير ١٩٩٤، كانت درجة الحرارة يومها تصل إلى عشرة تحت الصفر، وكنت بمجرد خروجك إلى أحد شوارع العاصمة الرومانية بوخارست تتوقف على الفور عن الإحساس بأصابعك وقدميك وأذنيك ومقدمة أنفك من شدة البرد، لم يكن ذلك اليوم مثاليا لزيارة المقابر، خاصة أنه يوم عمل في منتصف الأسبوع، ومع ذلك كله فقد كان هناك حشد

مما يقرب من ١٥٠ شخصا يتجه إلى مقبرة (خينسيا) الشهيرة بشكل لفت انتباه الكاتبة الكرواتية سلافينكا دراكوليتش؛ التي تروي لنا في كتابها المهم (المقهى الأوروبي الحياة في أوروبا بعد انهيار النظام الشيوعي) ترجمة محمد شحاتة الشربيني، كيف توقعت أن تكون تلك جنازة شخص مهم جدا، لكنها لم تر نعشا، وعندما سألت اكتشفت أن الجمع المحتشد كان في طريقه إلى زيارة مقبرة الديكتاتور الروماني نيكولاي شاوشيسكو الذي لا يزال العالم يذكر مشهد إعدامه هو وزوجته على يد الثوار الذين اقتحموا قصره وأنهوا أسطورة دولته القمعية.

كان ذلك اليوم ببساطة يوافق يوم عيد ميلاد شاوشيسكو الخامس والسبعين، في حياته كان ذلك اليوم بمثابة عيد قومي ترفرف فيه آلاف الأعلام وترفع المزيد من صوره التي تملأ بالفعل كل أرجاء رومانيا، ويبث التلفزيون خطابه الذي يلقيه للأمة الرومانية من قلب أكبر ستاد كرة قدم ممتلئ عن بكرة أبيه بأبناء الزعيم الذين يشاهدون بصحبته أوبريتات تم صناعتها خصيصا لتحية الابن الأعظم لرومانيا، تتخللها خطابات يلقيها كبار المثقفين وقصائد يلقيها كبار الشعراء، لكن ذلك اختفى الآن، وهاهو شاوشيسكو يرقد في قبر ليس له شاهد، ولكنه بعد سنوات قليلة من رحيله وجد ١٥٠ مواطنا يذهبون إلى قبره في البرد القارس ليحتفلوا بعيد ميلاده حبا وطواعية، ولكي تثبت السلطة الحاكمة للاتحاد الأوروبي انفتاحها وسعة صدرها سمحت لهؤلاء بحمل أعلام الحزب الشيوعي الحمراء وزينة ورقية وصورة وحيدة لشاوشيسكو في الوضع مبتسما.

بعد لحظات من مشاركتها في الحدث، أدركت سلافينكا أنها لا تشهد احتفالا بعيد ميلاد شاوشيسكو بقدر ما تحضر عرضا دراميا اجتماعيا واقعيا يعبر عن معاناة الكادحين في ظل المجتمع الرأسمالي الجديد، حيث بدأ كل من المتحلقين حول قبر الطاغية يشكو من مصاعب الحياة بعد انهيار النظام الديكتاتوري الشيوعي، «سيدة تتذكر بحنين أيام شاوشيسكو التي كان يمكن لها فيها أن ترسل ابناءها إلى المخيمات الصيفية، وامرأة أخرى تشكو من أن مرتبها أصبح يكفي فقط لشراء كيلو من اللحم شهريا، كانت دراما سياسية مرتجلة يخرج فيها أفراد من الشعب لإخبار مشاكلهم الشخصية لبعضهم أكثر من إخبارها لشاوشيسكو نفسه، فهؤلاء الناس لا يأتون ليتجمدوا في الاحتفال بعيد مولد شاوشيسكو أو لمجرد إجلاله، بل أتوا معا لتذكر ماضيهم الأفضل... كلهم بدوا فقراء وضائعين في معاطفهم البالية وأحذيتهم الجلدية وقبعاتهم الفرو. بالنسبة لهؤلاء البائسين كان شاوشيسكو مجرد رمز لكل ما عرفوه وتذكروه». من بين الجمع تعرفت الكاتبة على شقيق شاوشيسكو الذي كان وزيرا للزراعة في عهده والذي يشبه أخاه كثيرا، عندما ناقشته حول ما يحدث اعترف لها « بصراحة أنه لو كان الاقتصاد أفضل من ذلك لما كانت هناك حاجة لبعث أخي إلى الحياة، ولكنه كلما يزداد سوءا تزداد حاجة الناس لإعادة أخي إلى الحياة».

تقول الكاتبة الكرواتية بعد أن تأملت طويلا في أحوال دول أوروبا الشرقية بعد انهيار الأنظمة القمعية الشيوعية: «يحتاج أي شخص أن يفهم أننا أبناء العالم الشيوعي، ما زلنا أطفالا بالمعنى السياسي،

فنحن نحتاج إلى أب، شخص ما يعتني بنا حتى لا نضطر للاعتناء بأنفسنا، فنحن لا نعرف كيف نكون أحرارا، ولسنا على استعداد لتحمل المسئولية، والنتيجة هي خيبة أمل ملموسة في الواقع الجديد ما بعد الشيوعية، فكيف لا ينجح النظام الديمقراطي؟ الديمقراطية لا تنجح فقط لأن رؤساءنا يقولون إنها تنجح أو أن لدينا دستورا جديدا ديمقراطيا ونظام تعددٍ حزبي وانتخابات حرة واقتصاد سوقٍ حر، ولكن الأهم أننا جميعا يجب أن نعمل على نجاح الديمقراطية، ولكي نعرف كيف نقوم بذلك نحتاج أن نتعلم من هؤلاء الذين سبقونا في التجربة، ولديهم بعض الخبرة، ولكن من يريد الذهاب إلى المدرسة؟ ليس نحن بالتأكيد».

لسنا أسعد حالا للأسف، نحن أيضا لا نريد الذهاب إلى المدرسة، ولا نريد أن نتعلم من الذين سبقونا في التجربة، لأننا مشغولون بمحاولة القضاء على بعضنا البعض، أنصار الإخوان يتصورون أن ما يكون عليه كان ديمقراطية أصلا، وأنصار الفريق عبد الفتاح السيسي ليسوا مشغولين بالديمقراطية أصلا، كثيرون يعتقدون أن مشكلة مرسي أنه لم يفرم في الوقت المناسب، وكثيرون أيضا يعتقدون أن السيسي لم يفرم بما فيه الكفاية، والمواطن العادي يحلم بتحسن ظروفه الاقتصادية التي يدرك أنها يستحيل أن تتحسن طالما ظل الصراع الدموي قائما في البلاد، ولذلك فهو مستعد لأن يمنح صوته لكل من يعده بحسم هذا الصراع ولو بالمزيد من الفرم، لكن الأيام ستعلمه أن الفرم يقتل الأجساد لكنه يحيي الأحقاد، وأن البكاء على الماضي لأنه أقل سوءا لن يصنع لك مستقبلا أفضل حالا، بل سيعيد

لك الماضي في نسخة أكثر شراسة وقبحا، وسيدرك في وقت نسأل الله أن يعجل به أن الشعب الذي يظن أن مشاكله يمكن أن يحلها زعيم مخلص لا يحصل في النهاية إلا على طاغية يفشل في كل شيء، اللهم إلا في خداع المعدمين الذين أدمنوا العيش على ما كان يلقيه لهم من فتات.

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾

حيوان الخوف.. وحيوانات الجنينة!

عشاق الروايات يعرفون أن هناك قانونا متعارفا عليه في مسألة تحويل الروايات الأدبية إلى أفلام سينمائية يقول: «قلما تصبح الرواية العظيمة فيلما عظيما، وغالبا تصبح الرواية المتوسطة فنيا الغنية دراميا فيلما عظيما». لولا تعدد الأذواق لبارت الأفلام والروايات، وأنا أتحدث عن ذوقي الخاص، ومع ذلك لا أعتقد أنني سأجد كثيرين يختلفون معي حول المصير السيئ الذي تعرضت له أغلب روايات نجيب محفوظ عندما تم تحويلها إلى أفلام سينمائية، في حين أن رواية (السقا مات) ليوسف السباعي التي لم تحظ بنفس التقدير الفني كرواية تحولت على يد السيناريست محسن زايد والمخرج صلاح أبو سيف إلى فيلم من أجمل وأعظم أفلام السينما، على المستوى العالمي انظر على سبيل المثال لا الحصر ما حلّ بواحدة من أعظم الروايات على الإطلاق، رواية (الحب في زمن الكوليرا) للكاتب الكولومبي جابرييل جارسيا ماركيز، والتي بعد أن تحولت إلى فيلم من إخراج مايك نويل جعلت الكثيرين يتفهمون لماذا ظل ماركيز لعقود يرفض

تحويل رواياته إلى أفلام، حتى قال البعض: ليته استمر على موقفه ليظل لروايته سحرها العصيّ على التحويل إلى فيلم، راجع أيضا ما حدث لرواية (العطر) لباتريك زوسكيند برغم عناصر الإبهار التي قدمها الفيلم السينمائي المأخوذ عنها من إخراج توم تاكوير، إلا أنه لم ينجح في أن يكون على قدر الرواية في نظر كثير من محبيها، على الجانب الآخر يتم إنتاج أفلام شديدة الجمال والأهمية تنجح في لفت الانتباه بعد ذلك إلى الأعمال الأدبية التي أخذت منها، فيراها الناس أقل قدرا من الأفلام، انظر رواية (سلامدوج مليونير) للكاتب فيكاس سوارب التي برغم تميزها إلا أنك ستجد في الفيلم الذي أخرجه داني بويل شحنة إنسانية أكثر قوة وتأثيرا.

لذلك ولذلك كله، ظللت متلهفا لمعرفة كيف سيكون مصير واحدة من أجمل الروايات التي قرأتها في السنين الأخيرة! وهي رواية (حياة باي) للكاتب الكندي يان مارتل، والتي فازت بجائزة مان بوكر لعام ٢٠٠٢، خاصة بعد أن رفض العديد من المخرجين تحويلها إلى فيلم لأنهم أدركوا صعوبة ذلك، حتى تصدى لهذه المهمة الجسيمة المخرج التايواني الرائع أنج لي، فتفاءلت بذلك لأن أنج لي كان له تجربة رائعة في صنع فيلم جميل عن رواية جين أوستن «سينس أند سينسبيليتي» بمساعدة الممثلة إيما تومبسون التي كتبت له السيناريو وحصلت عنه على جائزة أوسكار. قرر أنج لي في فيلم «حياة باي» أن يتعاون مع كاتب أمريكي اسمه ديفيد ماجي كتب قبل ذلك فيلم «فايندينج نيفرلاند» عن حياة كاتب الأطفال جي إم باري مبتكر شخصية بيتر بان الشهيرة معتمدا على مسرحية، وربما أهَّله سابق

تعامله مع نص أدبي لحمل هذه المهمة الثقيلة التي لم يتكشف حتى الآن إلى أي حد تدخل فيها أنج لي.

كنت قد قرأت الرواية عندما صدرت لحسن الحظ عن منشورات الجمل قبل سنوات بترجمة رائعة للمترجم الفلسطيني سامر أبو هواش، ولذلك خاب أملي عندما رأيت الإعلان التشويقي الخاص بالفيلم؛ لأنه بدا منه أن كل ما شغل بال صناع الفيلم هو فكرة وجود بطل الرواية على قارب نجاة مع نمر بعد أن نجيا سويا من غرق سفينة كانت تحملهما إلى جوار مئات البشر وبعض الحيوانات التي كان ينقلها أبو البطل من الهند؛ حيث كانت تعيش في حديقة حيوانات يمتلكها الأب إلى كندا حيث كان سيبيعها ويشق طريقا في الحياة له ولأسرته، لكنني أدركت بعد مشاهدتي للفيلم أن أنج لي قام بتقديم إبداع موازٍ لإبداع يان مارتل للرواية، لينجح في أن يجعلك متلهفا لقراءتها إن لم تكن قد قرأتها، وأن تعيد قراءتها إذا كنت قد قرأتها دون أن تشعر أن الفيلم قد أساء إليها أو حط من قدرها، حتى لو كان هناك خلاف حول تفاصيل النهاية التي تبناها الفيلم.

لست من الحماقة بحيث أتصور أنني يمكن أن أقوم بحكاية الفيلم لك في هذه السطور، فضلا عن حكاية الرواية نفسها، ولا أدعي أن رواية عظيمة مثل هذه يمكن أن تغني عنها كتابة تكتفي بمدحها وتحبيب قراءتها لك، لذلك رأيت أن ما يمكن فعله احتفاءً بهذه الرواية، أن أعرض لك مقتطفات منها لم يتطرق لها الفيلم، لعل ذلك يدفعك إلى اقتنائها وقراءتها قبل أن تشاهد الفيلم أو حتى بعد

أن تشاهده، وأبدأ هذه المقتطفات بمقتطف بديع يتحدث فيه كاتب الرواية على لسان بطلها الشاب عن أكبر عدو نواجهه هذه الأيام، ألا وهو الخوف، الذي يقول عنه يان مارتل: « أود قول شيء عن الخوف، إنه خصم الحياة الوحيد، وحده الخوف يمكن أن يهزم الحياة، إنه عدو ذكي وغدار، لكم أعرف ذلك، إنه عدو يتمتع باللياقة، ولا يحترم قانونا أو ميثاقا، ولا يرحم، إنه ينقضُّ على نقاط ضعفك، التي لا يجد صعوبة في رصدها، يبدأ دائما من عقلك، في لحظة تكون شاعرا بالهدوء، والتحكم بالنفس والسعادة ثم يأتي الشك متنكرا في هيئة شكوك صغيرة، ويتسلل إلى عقلك كجاسوس، الشك يلتقي باللاتصديق واللا تصديق يحاول طرد الشك، لكن اللا تصديق هو جندي مشاة يفتقر إلى العتاد المناسب، الشك يقضي عليه بسهولة، يستحوذ عليك القلق، فيتقدم العقل ليحارب عنك، تستعيد ثقتك بنفسك، لأن العقل مسلح بأحدث الأسلحة، لكن لذهولك ورغم التكتيكات المتفوقة وبعض الانتصارات التي حققتها، فسرعان مايهزم عقلك، يتسلل الوهن إليك، تتذبذب، يتضخم قلقك إلى حدود مروعة، ثم ينتقل الخوف إلى جسمك المدرك سلفا بأن هناك أمرا جللا يجري، تُحَلِّق رئتاك كطائر، وتتلوى أمعاءك كأفعى، الآن يموت لسانك كالأبوسوم، فيما يبدأ فكك بالاصطكاك، تصم أذناك وتروح عضلاتك ترتعش كمصاب بالملاريا، وترتعد ركبتاك كما لو أنهما ترقصان، ينخطف قلبك بقوة، بينما ترتخي عضلتك العاصرة كثيرا، وكذلك الأمر بالنسبة إلى سائر أعضاء جسمك، كل عضو فيك يتداعى على طريقته، فقط عيناك تظلان تعملان جيدا، إنهما دائمتا التنبه إلى الخوف، تتخذ

قرارات متسرعة، تطرد آخر حليفين لك، الأمل والثقة، هكذا تكون هزمت نفسك بنفسك، يكون الخوف الذي ليس أكثر من تعبير قد انتصر عليك، يصعب الشرح بالكلمات، ذلك أن الخوف، الخوف الحقيقي ذاك الذي يهز أساس وجودك، ذلك الذي يعتريك وأنت تواجه فناءك يعيش في ذاكرتك، كالغرغرينا يفسد كل شيء، بما في ذلك الكلمات التي تحاول وصفه، لذا عليك أن تكافح لتعبر عنه، عليك أن تكافح لتجعل ضوء الكلمات يشع عليه، لأنك مالم تفعل ذلك، ما لم تحول خوفك إلى عتمة لا تخشى فيها الكلمات، وتنجح ربما في نسيانها، فإنك تعرض نفسك إلى غارات أخرى من الخوف، لأنك منذ اللحظة الأولى لم تحارب حقا الخصم الذي هزمك سلفا».

في مقاطع كثيرة من الرواية يتحدث الكاتب عن عالم حدائق الحيوانات، وهو العالم الذي مرّ عليه الفيلم مرور الكرام، لأن إيقاعه لم يكن ليتحمله، مع أن ما قدمته الرواية عن ذلك العالم يصلح ليكون أساسا لتقديم عمل فني كامل عن عالم حدائق الحيوان الذي يتأمله الكاتب بعين ساخرة وعميقة، مناقشا الكثير من الأفكار التي يتداولها الناس عن ذلك العالم ومقارنته بعالم الحيوانات التي تحيا في البراري، فيقول في أحد مقاطع روايته: «لا يوازي ماسمعته من هراء يردده بعضهم عن حدائق الحيوانات إلا ماسمعتهم يرددونه عن الله والدين، فالناس ذوو النوايا الحسنة ولكن الذين تنقصهم المعلومات، يحسبون أن الحيوانات تعيش سعيدة في البراري لأنها تكون حرة هناك، فتراهم يتخيلون حيوانا مفترسا ضخما وجميلا كالأسد أو الشيتا وهو يختال في الصحراء لكي يهضم بعد التهامه فريسة تقبلت قدرها برضا، أو

يتخيلـون هذا الحيوان ممارسـا الركض لكي يحافـظ على نحافته بعد أن أفـرط فـي الاسـترخاء، يتخيلونه مشـرفا على ذريته بفخـر وحنان، فيما تجتمع العائلة لتسـتمتع بمنظر الغروب من على جذوع الأشجار، متنهـدة بغبطـة، وبالنسـبة إليهـم تعيش حيوانـات البراري حياة سـهلة ونبيلة وذات مغزى، قبل أن يأتي رجال أشرار فيصيدونها ويرمونها في أقفاص صغيرة، وعندها تتحطم سـعادتها، ويشـتد توقهـا إلى الحرية، وتفعـل كل مافـي وسـعها للفرار، بعـد حرمانه من الحريـة وقتا طويلا يصبح الحيوان ظل نفسـه وتنكسـر روحه هذا ما يخالـه بعض الناس، لكـن الأمور ليسـت كذلك.... تعيـش حيوانات البـراري تحت وطأة الإكـراه والضـرورة ضمن تراتبيـة هرميـة لا ترحم، في بيئـة يكثر فيها الخوف ويندر الطعام، وحيث ينبغي الدفاع باستمرار عن الأرض ضد تطفـل الحيوانات الأخـرى، فما معنى الحرية هنـا؟ حيوانات البراري عمليا غير حرة لا في المكان ولا في الزمان، ولا على صعيد العلاقات فيما بينها».

ثم بعد شرح طويل يقول يان مارتل: « دعني أستطرد في شرح ناحية واحدة: إذا ماذهبت إلى بيت أحدهم وركلت الباب برجلك ورميت بساكنيه إلى الشارع قائلا لهم اذهبوا وأنتم أحرار كالطيور اذهبوا اذهبوا، أو تظنهم سيهللون ابتهاجا ويرقصون فرحا، لا لن يفعلوا ذلك فالطيور ليست حرة، وأولئك الذين قمت بإخلائهم توًّا قد يصرخون في وجهك بأي حق ترمينا في الخارج هذا بيتنا ملكيتنا إننا نعيش هنا منذ سنوات. سوف نستدعي الشرطة أيها الوغد. ألا يردد البشر غالبا: ليس من مكان أفضل من البيت، هذا بالتأكيد ماتشعر

به الحيوانات، إنها كائنات محلية ومحليتها هي مفتاح فهم عالمها، وحده المكان الذي تألفه يستوفي بالنسبة إليها الشرطين الأساسيين للعيش في البراري، تجنب الأعداء والحصول على الطعام والشراب، حديقة الحيوان المناسبة إحيائيا، أكانت قفصا أم حفرة أم جزيرة أم زريبة أم مربى بريا أم مائيا أم مطيرا، هي حيز مكاني بديل بالنسبة إلى الحيوان، وهذا الحيز يبدو مختلفا فقط في حجمه وفي قياسه النسبي إلى الحيز المكاني البشري أما كونه أصغر بكثير مما هو عليه في الطبيعة فذلك له تفسير منطقي، فالحيز المكاني في البرية ليس كبيرا من باب الرغبة بذلك، بل من باب الضرورة، في الحديقة نقدم للحيوانات مانقدمه لأنفسنا في البيوت، نضع في حيز مكاني صغير ومحدد ماهو مشرع وفسيح في البرية. في الماضي بالنسبة إلينا كبشر كان الكهف هنا والنهر هناك وأمكنة الصيد على بعد ميل من هنا يليها المطل وثمرات العليق في مكان آخر، وكلها ممتلئة بالأسود والأفاعي والنمل واللبلاب السام، أما اليوم فالنهر يتدفق من صنابير مياه على مرمى اليد، ونستطيع غسل ملابسنا قرب حجرات نومنا، ونستطيع أن نأكل حيث نطبخ، وأن نسوّر ذلك كله بجدار ونبقيه نظيفا دافئا.. البيت إذا هو منطقة مضغوطة تلبى فيها حاجاتنا الأساسية بأمان وضمن مجال محدد، وحديقة الحيوانات المناسبة تعادل ذلك كله بالنسبة إلى الحيوان مع الغياب الجدير بالانتباه للمدفئة وغيرها من كماليات نجدها في السكن البشري، فالحيوانات تجد في الحديقة كل الأمكنة التي تحتاج إليها: المرقب والمستراح ومكانا للشرب والأكل والاستحمام وللمزاوجة.. إلخ.. وإذ يجد الحيوان أنه لا يحتاج إلى

الصيد، حيث الطعام يحضر إليه طوال أيام الأسبوع، فإنه يستحوذ على حيزه المكاني في حديقة الحيوانات على النحو نفسه الذي يسيطر فيه على بقعة جديدة في البراري فيستكشفه ويعلمه بالبول بالطريقة نفسها التي يفعل بها جنسه ذلك، وما إن يتم طقس الانتقال هذا ويستقر الحيوان فلن يعود نزيلا متوترا، ولن يتصرف كسجين، بل كصاحب ملكية، وسيتصرف تجاه مكانه بالطريقة نفسها التي يتصرف فيها ضمن بيئته البرية، بما يتضمنه ذلك من شراسة في الدفاع عنه إذا ما تعرض للغزو، ليست بيئة كهذه أفضل ولا أسوأ بالنسبة إلى حيوان من البراري، مادامت توفر له احتياجاته، ليصبح المكان بكل بساطة، طبيعيا كان أم اصطناعيا، ومن دون إطلاق الأحكام أمرا مسلما به كالبقع على جلد فهد، بل يمكن أن يجادل المرء حتى أنه إذا ماقيض للحيوان الاختيار فسيفضل العيش في حديقة الحيوان، ما دام الفرق الجوهري بينها وبين البرية هو غياب المتطفلين والأعداء ووفرة الغذاء في الأولى، ووفرته النسبية وندرته في الثانية، ضع نفسك في مكانه، أتفضل أن تقيم في فندق ريتز مع خدمة غرف مجانية وخدمة طبية متوافرة طوال الوقت، أو أن تكون متشردا من دون أحد يعتني بك، لكن الحيوانات لاتقوم بمثل هذه المفاضلة، فتتكيف ضمن حدود طبيعتها مع ماهو متوافر لها».

ويختم تأملاته الطويلة التي يختلط فيها الجد بالهزل في مقطع ثالث يقول فيه: «حتى الحيوانات التي يتم استيلادها في حدائق الحيوانات ولم تعرف البرية أبدا، والتي تتأقلم بسهولة مع محيطها ولا تشعر بالتوتر في حضور البشر، تمر بلحظات من الهيجان تدفعها إلى

السعي إلى الفرار، يبدو أن ثمة قدر من الجنون في كل الكائنات الحية يحركها بطرق غريبة وغير مفهومة أحيانا، هذا الجنون يمكن أن يكون عامل إنقاذ أحيانا، إنه جزء من القدرة على التأقلم من دونه لا يمكن لأي جنس الاستمرار بالعيش. إذا ما وقعت في عرين أسد فلن يمزقك إربا لأنه جائع، كن واثقا من ذلك، حيوانات الحدائق تتغذى جيدا أو لأنه متعطش للدماء لكن لأنك تجاوزت حدود منطقته. لهذا السبب يحرص مدرب الأسود في السيرك على دخول الحلبة قبل الأسود وعلى مرأى منها، فبفعله هذا يرسخ في أذهانها أن الحلبة هي منطقته، لا منطقتها وهو مفهوم يعززه بالصراخ، والضرب بشدة بأخمص قدميه والضرب بسوطه....حياة حديقة الحيوانات كحياة ساكنيها في البراري متقلقلة ليست عملا ضخما كفاية ليكون فوق القانون، ولا صغيرا كفاية للاستمرار على هوامشه، ولكي تزدهر تحتاج الحديقة إلى حكومة برلمانية وانتخابات حرة، إلى حرية الكلام وحرية الصحافة وحرية العلاقات وسيادة القانون وكل شيء آخر منصوص عليه في دستور الهند، من المستحيل الاستمتاع بالحيوانات من دون هذه الشروط، السياسات السيئة والحكم الديكتاتوري تلحق الضرر بهذا العمل».

من أجمل الفقرات التي قرأتها في الرواية فقرة عن فن كتابة الرواية بشكل عام، يتحدث فيها كاتبها على لسان بطلها الثاني وهو الكاتب الذي يسمع قصة البطل الرئيسي ويفكر في كتابتها فيقول: «إنها معادلة مأساوية بالنسبة إلى الطامحين أن يصيروا كتّابا، موضوعك جيد، وكذلك قدرتك التعبيرية، شخصياتك مفعمة بالحياة إلى حد

أنه يمكنك أن تستخرج لها شهادات ميلاد، الحبكة التي وضعتها لهم عظيمة، بسيطة ومشوقة، كما أنك قمت بأبحاثك، وجمعت الوقائع التاريخية والاجتماعية وتلك المتعلقة بالطقس وعادات الأكل التي ستمنح قصتك المصداقية والأصالة، الحوار يتدفق بالحيوية ويمور بالتوتر، الوصف يتفجر بالألوان، والتناقض والتفاصيل الدالة، حقا يستحيل ألا تكون قصتك عظيمة، لكن هذا كله لا يعني شيئا، على الرغم من الوعد الواضح المشع في قصتك، تأتي اللحظة التي تسمع فيها بوضوح ماكنت تسمعه يتردد همسا طوال الوقت في خلفية تفكيرك، والذي يقول لك الحقيقة البسيطة الفجة: لن تنجح الرواية، ثمة عنصر ناقص، تلك الشرارة التي تجعل قصة تنبض بالحياة حقا، بصرف النظر عن درجة دقة هذه المعلومة أو تلك، قصتك ميتة عاطفيا، هذا هو الأمر الأساسي، أقول لكم، إنه اكتشاف مدمر للروح، فهو يترك صاحبه يعاني من جوع مزمن مؤلم».

أما العبارات الأروع في الرواية والتي يمكن أن تعتبرها تلخيصا مفتاحيا ليس فقط لأحداث الرواية، بل للكثير مما شهدناه ونشهده في حياتنا من أحداث، فهي تلك التي يقول فيها كاتبها يان مارتل: «الحياة رائعة إلى حد أن الموت واقع في غرامها، غرام استحواذي غيور يتشبث بكل ما يمكنه الحصول عليه، لكن الحياة تتغلب على النسيان بكل خفة، خاسرة على الدرب تفصيلا أو اثنين تافهين، أما الكآبة فليست سوى ظل غمامة عابرة».

تبقى في النهاية نصيحة مخلصة بألا تحرم نفسك من قراءة رواية (حياة باي)، لعلها تعينك بعض الشيء على مواجهة وحشية حيوان الخوف ومقاومة غباوة بعض البشر الذين خلقهم الله أحرارا، فاختاروا أن يكونوا أكثر عبودية من الحيوانات مع أنهم لا يحصلون حتى على رفاهية حيوانات الجنينة.

قفا ثورة!

من فضلك لا تدع مشاعرك المتناقضة تفزعك، أرجوك لا تشعر بأنك «مش طبيعي» لمجرد أنك تجد نفسك هذه الأيام فجأة ساقطا ولا مؤاخذة في قاع سحيق من الاكتئاب، ثم عندما تتكعبل في خبر يقدم لك بصيصا من الأمل تفاجأ بنفسك تجري وراء الأمل بكل ما أوتيت من قوة، للحظات تشعر أن الثورة خلاص سُرقت إلى الأبد فتبتئس، وبعدها بساعات ترى حدثا يلهمك فتبتهج لأنك شعرت بواقعية حلمك في جني ثمار الثورة وأنت «حي لا تُرزق».

صدقني كل ما تشعر به منطقي للغاية حتى لو كان منافيا لأبسط قواعد المنطق، فنحن نعيش الفترة التي يمكن إن نطلق عليها بشكل غير علمي «قفا ثورة»، اسأل عن هذا التعبير كل من يعمل في المحلات التجارية أو المطاعم، وسيقول لك إن أسوأ فترات الحياة على الإطلاق هي فترات «قفا العيد» التي «يُقف» فيها الحال ويعربد الزهق في جنبات النفس ويضاجع اليأس روحك بشغف شديد، نحن يا سيدي نعيش ما يوصف سياسيا بالمرحلة الانتقالية، صحيح أنها منذ سنتين تنقلنا من

بلاعة إلى أخرى، لكن دعنا نحمد الله أن الجميع مجمعون على كونها مرحلة انتقالية لا يمكن أن تستمر إلى الأبد، لذلك دعنا نتشبث بهذا الأمل وإن كان مشكوكا فيه، وننظر إلى النصف الملآن من الكوب، حتى لو كان مليئا بمياه ملوثة تجيب المرض، لأنه ما زالت لدينا فرصة لدلقها وملء الكوب بمياه نظيفة، المهم ألا يوصلنا الإحباط إلى كسر الكوب واستخدام نصفه المكسور في الانتحار.

طب وحياة أمي، كلامي ليس هجايص تهدف إلى تصبيرك، بل هو حقيقة علمية يمكن أن تقرأها بالتفصيل في كتاب (روح الثورات) لعالم الاجتماع الفرنسي جوستاف لوبون والذي درس فيه بشكل رائع نتائج الثورة الفرنسية، وهو كتاب ترجمه الأستاذ عادل زعيتر وأعادت إصداره دار الكتب والوثائق القومية، وفي أحد فصوله الذي يحمل عنوان (تقلبات الخلق أيام الثورات) ستجد كلاما شديد الأهمية، يكتبه جوستاف لوبون عن التحول الذي يحدث في شخصية البشر أيام الثورات، والذي «يعود سببه إلى أن لكل إنسان نفسية ثابتة، لكن له أيضا شئونا خلقية متقلبة تظهر مع تغير الحوادث، وهذه الأخلاق تتكون من اجتماع شخصيات وراثية كثيرة تبقى متوازنة ما دامت البيئة المحيطة به لا تتقلب، لكنها متى تقلبت كثيرا وحصل فيها تغير حاد، يختل توازن الإنسان ويتألف من تكتل عناصره الموروثة شخصية جديدة ذات أفكار وعواطف ومناهج تختلف جدا عن شخصيته العادية».

لو لم تفهم كلمة مما سبق، لا تهتم، عندي لك طريقة أخرى أكثر بساطة لطمأنة نفسك، شوف يا سيدي، عندما يتهمك أحدهم بأنك أصبحت كائنا «بيضوحباطيا» تعشق النكد وتكسير المقاديف والمرمغة في أحضان الإحباط، قل له إنك لست «بيضوحباطيا» على

الإطلاق، وكل ما في الأمر أن الشدة التي يمر بها الوطن حولتك إلى كائن «مرحنقباضي» طبقا لتعبير أبونا صلاح جاهين الذي لا يمكن أن تجد خبيرا في علم الحزنولوجي أفضل منه، أليس هو الذي جاب آخر الحزن عندما قال:

حزين يا قمقم تحت بحر الضياع..
حزيـن أنـا زيـك وإيـه مسـتطاع..
الحزن ما بقالهوش جلال ياجدع..
الحـزن زي البـرد زي الصـداع

طيب، صلاح جاهين هو ذاته الذي قام بتوصيف الحالة النفسية الملخفنة التي نعيشها هذه الأيام في مقال قديم له نشره في أوائل الستينات في مجلة (صباح الخير)، وتم إعادة نشره مؤخرا ضمن أعماله الكاملة التي أصدرتها مشكورة مأجورة الهيئة المصرية العامة للكتاب، وبالتحديد في الكتاب السابع منها الذي يضم عددا من مقالاته الصحفية المثيرة للدهشة والتأمل.

يقول صلاح جاهين في أجزاء من مقاله «أخوكم العبد الفقير شخصيته يسمونها في علم النفس، أو بصراحة في طب الأمراض العقلية «مانيك دبرسيف» (Manic depressive) وهي كلمة مركبة تقابلها في اللغة العربية كلمة نحتّها بنفسي هي «مرحنقباضية» وواضح أنها مكونة من شقين: المرح والانقباض.. فالشخصية المرحنقباضية تجدها في بعض الأحيان شديدة المرح والابتهاج تكاد تطير من الأرض طيرانا، وفي أحيان أخرى تجدها شديدة الانقباض كأنها

مضروبة ستين ألف صرمة قديمة، مع مرارة حقيقية في الحلق وثقل في الأطراف، تسير مطأطأة الرأس، تجر نفسها جرا، والحالتان تحدثان لها عادة بدون أي سبب.

... إن معظم رسامي الكاريكاتير في العالم شخصياتهم من هذا النوع: مرحنقباضية... والسبب بحسب اجتهادي في تفسير هذه الظاهرة الذي يجعل المرحنقباضية هي مرض المهنة بيننا، كما أن السل هو مرض المهنة عند العمال في بعض الصناعات، أن الإنسان متوازن بطبيعته، يحمل من قدرة الانفعال المرح بقدر ما يحمل من قدرة الانفعال الغاضب، فإذا تعمد أن يبالغ في المرح وفي خلق جوه لتأليف نكتة أو رسم كاريكاتير، لا بد وأنه ينقلب إلى الطرف الآخر بنفس درجة البعد عن نقطة الوسط، ثم يظل هكذا يتأرجح مثل البندول. وكثيرا ما كان البعض يسألونني كيف تستطيع أن تكون رساما كاريكاتوريا وبكل هذا التهريج، وفي نفس الوقت شاعرا وبكل هذا الحزن؟! ولم يخطر في بالي أبدا أن أخبرهم باسم حالتي في طب الأمراض العقلية: المرحنقباضية. وليس معنى هذا أن المرحنقباضية قد تصيب رسامي الكاريكاتير فقط، وإنما أيضا تصيب غيرهم من الأفراد والجماعات بل والشعوب أيضا، خذ مثلا الشعوب التي تعتقد في قرارة نفسها أنها كلما ضحكت كثيرا، بكت كثيرا، ولذلك تجدها إذا ضحكت تقول: «ربنا يجعله خير».

الخلاصة يا صديقي، عندما تشعر بأنك تتأرجح بين الاكتئاب والأمل، لا تدع ذلك يحبطك، فأنت على الأقل أصبحت مثل صلاح

جاهين، صحيح، كل ما ينقصك هو الموهبة الفذة والعبقرية النادرة والجاذبية الطاغية والسحر الرباني والدماغ المتكلفة، لكن المهم أنك الآن شخص «مرحنقباضي» مثل صلاح جاهين، ولذلك إذا داهمك الحزن انس أن جاهين مات تحت وطأة الحزن، واكتفِ بتذكره وهو يقول لك:

حاسب من الأحزان وحاسب لها
حاسب على رقابيك من حبلها
راح تنتهي ولا بد راح تنتهي
مش انتهت أحزان من قبلها. عجبي

عشان تبقى فاهم يعني.

مريم ووهم الزمن السعيد!

مع أنها رواية تحكي وجع العراق، إلا أن وجع مصر لن يفارقك لحظة وأنت تقرأها، ليُجَدِّدَ حُزنك على العراق خوفكَ على مصر، وأملك في ألا نواصل السير بها بفعل عنادنا ومكابرتنا وإدماننا للكراهية نحو مصير أسود حزين، شهده العراقيون عندما فقدوا قدرتهم على التعايش، وظنوا أن الاستبداد وحده يمكن أن يحميهم من التطرف إلى الأبد.

في رواية الروائي العراقي سنان أنطون البارعة والحزينة (يا مريم) الصادرة عن منشورات الجمل والمرشحة لجائزة البوكر العربية ٢٠١٣، نرى يوسف بطل الرواية المسيحي العراقي الذي عاش عمره في خدمة نخيل العراق وهو يجد نفسه مواجها بسؤال مرير «كيف أصبح نخيل العراق كلما هززت جذوع أشجاره لا يُساقط على كل مريم عراقيةٍ إلا موتًا سخيًّا؟»، لكن التعقيدات الكابوسية التي يشهدها الواقع العراقي في عام ٢٠١٠ الذي تدور الرواية فيه لا تقدم له إلا المزيد من الأسئلة، لذلك يجد يوسف نفسه متهما بالعيش في

الماضي للهروب من مرارة الواقع، الاتهام توجهه له قريبته الشابة مها التي تعرضت للإجهاض بسبب حادثة تفجير سيارة مفخخة تستهدف حيًّا سكنيًّا تقطنه أغلبية مسيحية، مما اضطرها وزوجها إلى المجيء للإقامة مع يوسف في بيت العائلة الذي أصبح خاويا إلا منه، وهنا يلجأ سنان أنطون إلى الإجابة عن أسئلة بطله من خلال حيلة فنية بارعة، حين يجعل يوسف يُقَلِّب في صوره العائلية القديمة، فيحكي لنا من خلالها التحولات الاجتماعية التي شهدها العراق، وندرك حجم الجريمة المروعة التي أحدثها الاستبداد بالنسيج الاجتماعي العراقي، حيث كان يصور للناس أنه يحميهم بقبضته البوليسية من الطائفية والمذهبية، لكنه كان في واقع الأمر يدمر حصانة المجتمع وقدرته على المقاومة، لتظهر عليه علامات التفكك والتناحر بصورة مفزعة السرعة فور انهيار قبضة الدولة البوليسية.

ستجعلك هذه الرواية تتأمل طويلا في واقع الشعوب التي تفشل في مواجهة تحديات الحاضر، فتفضل إراحة دماغها من عناء صنع المستقبل، وتختار الهروب إلى الماضي وأوهام الزمن الجميل الذي كان، كذلك فعلت مها بطلة الرواية وهي تحاول البحث عن مخرج من العراق، سواءً بالهجرة إلى بلاد أوروبية تعيش فيها إنسانيتها، أو حتى بالهجرة النفسية إلى أزمان ماضية كان العراق فيها أجمل، لكنها تواجه نفسها في نهاية المطاف بالحقيقة المرة: «على الفيسبوك عثرتُ أيضا على مجموعة العراق الجميل التي يتبادل أعضاؤها صور العراق وأغانيه في ما يسمونه زمان الخير. كانت الصور جميلة ونادرة، تذكرني تعليقات الأعضاء تحت كل صورة جديدة توضع على جدار

المجموعة بكلام يوسف عن الماضي ووقوفه على أطلاله، ذلك الماضي الذي كان كل شيء فيه جميلا لا تشوبه شائبة، لكن الغريب أن الماضي عند هؤلاء لم يكن ينتهي أو يبدأ عند النقطة نفسها، فمنهم من يعتبر أن قدوم البعثيين في ١٩٦٣ والوحشية التي قُتل بها عبد الكريم قاسم كانت نهاية الزمن السعيد، ومنهم من يعتبر صعود صدام في ١٩٧٩ بداية النهاية، وهناك من يَمُدُّ بِساطَ الزمن السعيد إلى ١٩٩١ لأن الحصار هو بداية نهاية العراق، وهناك آخرون ينتهي عندهم الزمن في ٢٠٠٣، والغالبية منهم يَحِنُّون إلى زمن الملكية وينشرون صور العائلة المالكة معتبرين الانقلاب العسكري والوحشية التي قتلت بها العائلة المالكة بداية الشر والسقوط في الهاوية، وأتساءل في سرِّي كلما قرأت تحسراتهم على زمن الملكية: ألم يُذبح الآشوريون في ذاك العهد الملكي السعيد؟ ألم يتم تهجير اليهود العراقيين وطردهم من بيوتهم وبلدهم الذي عاشوا فيه بين ليلة وضحاها؟ ألم يكن الفقر مستشريا؟ والعهود التي تلته ألم تكن مليئة بالمذابح والمقابر الجماعية للأكراد والشيعة؟ تختلط البدايات والنهايات. كلٌّ يبكي على عراقه السعيد، لكنني كنت أشعر وأنا أنظر إلى كل تلك الصور والتعليقات التي تصاحبها بأنني لا أمتلك زمنا سعيدا أحن إليه. زمني السعيد لم يكن قد وُلِد بعد. ربما أكون سعيدة هناك، بعيدا عن العراق، بعيدا عن الموت والمفخخات وكل هذا الحقد الذي صار يسري في الشرايين. سنترك البلد لهم ليحرقوه ويُمثِّلوا بجُثته وسيذرفون دموعهم عليه بعد فوات الأوان الذي فات».

في إحدى جلسات يوسف الحميمة مع صديق عمره الشيعي سعدون الذي يشاركه في عشق شاعر العراق الأعظم محمود مهدي الجواهري يتجدد بينهما السؤال الموجع: «والله ما أدري يعني كانت كل ها الطائفية موجودة واحنا ما حاسين بيها؟»، فيُشَرِّقان في الأحزان ويُغَرِّبان، قبل أن يحكي يوسف لسعدون نكتة سمعها من زوج قريبته عن «ثلاثة عراقيين سنّي وشيعي ومسيحي وقع بأيديهم مصباح علاء الدين، دعكوه فطلع لهم الجني ليسأل الشيعي: «إيش تريد؟»، فطلب منه الشيعي أن يمحو السنة: «ما تبقّي ولا واحد»، فقال له الجني: «صار تدلّل»، ثم طلب من السني أمنيته التي كانت: «أقتل الشيعة كلهم لا تبقي ولا واحد منهم يتنفّس»، رد الجني: «صار تتدلّل» ليسأل بعدها المسيحي عن أمنيته، فيفكر المسيحي قليلا ثم يقول له: «طيب نفّذ طلبات الجماعة الأول وبعدين تعال عليّ»، يتبادل الاثنان الضحك المرير، ثم يروي سعدون لصديقه يوسف أبياتا ساخرة قالها قديما الجواهري عن موضوع الطائفية: «أي طَرطَرا تطَرطَري.. تقدّمي تأخّري.. تشيّعني تسنّني، تهوّدي تنصّري، تكرّدي تعرّبي»، فيرد يوسف مندهشا: «هاي قالها من زمان؟هذا معناه الطائفية صدق موجودة من زمان»، فيرد سعدون: «لا يوباه دايما كان أكو سُنّة وشيعة ومسيح وإسلام، بس ما كان قتل وسحل وميليشيات ومفخخات»، فلم يجد يوسف ما يرد به سوى أن يقول: «الله كريم» قبل أن يضيف: «ظل إيقاع الأبيات يرن في أذني وأنا أمشي بعد أن ودعته: أي طرطرا تطرطري».

رحم الله الجواهري، وحفظ مصر والعراق، وكفانا وإياكم شرّ الطرطرة الطائفية التي تبدأ بالكلمات وتنتهي دائما بطرطشة الدماء.

في هجاء الغتاتة!

بعضنا ما زال يحتاج إلى أن نصرخ في وجهه «إيه لازمة الغتاتة يا أخي؟».

تخيل أنني عرفت عنوان بيتك بشكل أو بآخر، وقررت أن ألبد لك أمام باب بيتك لأنتظرك كل صباح وأنت تستعد للخروج إلى عملك ليرزقك الله كما يرزق الطير تغدو خِماصًا وتروح بِطانًا، وفور خروجك لبدء معركتك مع الكون تجدني أهبُّ في وجهك بكل غتاتة الدنيا ورخامة الكون قائلا: «شغل إيه اللي انت رايحه يا أخي.. إنت خدت إيه من الشغل.. هتستفاد إيه.. هيّ دي فلوس اللي بتاخدها.. وحتى لو ادوك فلوس النهارده أكيد بكره الشركة هتفلس ويطلعوك معاش مبكر أو يلفقوا لك بلوة ويودوك في ستين داهية.. بلاش ده كله ممكن دلوقتي تخبطك عربية أو يقع عليك تكييف أو ييجي لك وباء يجيب أجلك»، سأكتفي بهذا القدر من الغتاتة على أمل أن يكون قد وصلك المعنى الذي أرغب في إيصاله، لم يصلك بعد؟ طيب دعنا نكمل إذن، خلاص، لن أكمل علشان خاطرك، مع أن تعداد

الكوارث التي يمكن أن تقع عليك في بلادنا الحبيبة أمر لا يحتاج إلى مجهود كبير.

ما كنت أريد أن أقوله لك بتلك الطريقة الغتيتة، هو محاولة استعطافك أن تعتقني لوجه الله من ذلك اللون من الغتاتة الذي لا ترضاه لنفسك، ومع ذلك فأنت ترضاه لي، أعني إذا كنت واحدا من الذين يقرءون ما أكتبه فيبادرون فور انتهائهم منه إلى المسارعة بإرسال رسائل من نوعية «ياعم إنت بتنفخ في قربة مقطوعة.. دي بلد ما منهاش رجا.. إنت بتتعب روحك على إيه.. مافيش فايدة من الكلام اللي بتقوله.. ريّح نفسك كان غيرك أشطر»، وما إلى ذلك من الكلام السقيم الذي يظن من يكتبه أنه يلعب دور زرقاء اليمامة التي أحيطت علما ببواطن الأمور، فقرّرَت أن تساعد الحمقى من أمثالي لتوفِّر عليهم مشقة الكتابة ووعثاء التفكير.

انتظر لحظة، هل تظن أنني الآن أملي عليك ما يجب أن تكتبه لي؟ لا سمح الله، هل أتزلف منك طبطبة أو تشجيعا أو مساندة؟ حاشا لله، بالعكس أرجوك أوسعني معارضة وهجوما واستهزاءً وقدحا وذما بل وشتيمة إذا سمحت أخلاقك الكريمة، ولكن أرجوك، كله إلا تكسير المقاديف، شاركني فيما شئت من آراء أيا كان تطرفها وشططها وحدتها، لكن أرجوك احتفظ فقط لنفسك بآراءك النيرة عن عدم جدوى الكتابة وحتمية خراب مصر، صدقني لست أطلب منك أن تؤمن مثلي بأن الكتابة مجدية، ولا أن تدرك أن مصر لن تخرب إلا بسبب الذين يعتقدون أن الكتابة نفخ في قربة مقطوعة وأن الأفضل أن

نسلم البلد للفاسدين والظلمة ونستمر نحن في اللطم والعويل، حاشا لله أن أفرض رأيي عليك، أنا فقط أطلب منك ألا تقف تحت بيتي لتكسر مقاديفي على الصبح، فهل هذا كثير؟

بالتأكيد لن تنجح الكتابة في تغيير الواقع تماما أو حتى بعض الشيء، لكنها يمكن أن تساعد على إبقاء حلم التغيير حيا، ولعلك لن تجد من يحدثك عن أهمية الإبقاء على جذوة الحلم مشتعلة بين الناس، أفضل من أحد سادة الحالمين والمتمردين في كل الأزمنة: أرنستو تشي جيفارا الذي تحدث عن «أهمية الإيهام بالتقدم كشرط لنجاح الثورات»، كان ذلك في آخر حوار دار قبل إعدامه بينه وبين المقدم أندرياس زليخ، قائد القوة الخاصة البوليفية التي ألقت القبض عليه، وهو الحوار الذي ظل طي الصمت بتعليمات رسمية لمدة ٢٩ عاما حتى مات زليخ وسمحت أرملته للصحفي الأمريكي جولي أندرسون بأن يطلع على مذكراته التي سجل فيها نص حواره الأخير مع جيفارا والذي كان نصه كالتالي:

« زليخ: ياكومندان، أجدك محطما إلى حد ما، هل يمكنك تفسير أسباب وجود هذا الانطباع لديّ؟

جيفارا: لقد فشلت، كل شيء انتهى، هذا هو سبب رؤيتك لي كما أنا عليه.

زليخ: أنت كوبي أم أرجنتيني؟

جيفارا: أنا كوبي، أرجنتيني، بوليفي، من ألبيرو، من الأكوادور، أنت تفهمني.

زليخ: ما الذي جعلك تقرر القيام بعمليات في بلادنا؟

جيفارا: ألا ترى الظروف التي يعيش فيها الفلاحون؟ إنهم في حالة همجية، يعيشون في حالة من الفقر تجعل قلبك ينتفض ألما، ينامون ويطبخون في غرفة واحدة، ولا يوجد مايستر أجسامهم، هم مهملون كما لو كانوا حيوانات.

زليخ: لكن هذا أيضا موجود في كوبا؟

جيفارا يرد بعنف: لا، هذا غير صحيح، أنا لا أنكر وجود الفقر في كوبا، لكن على الأقل لدى الفلاحين هناك الايهام بالتقدم، بينما البوليفي يعيش دون أمل، ومثلما يولد ينتهي إلى الموت، دون أن يرى أبدا أي تحسين في وضعه الإنساني».

شوف يا سيدي، في روايته القصيرة المكيرة «أسطورة جبل آغري» يحكي الكاتب التركي العظيم يشار كمال عن سلطان طاغية طلب من معماري بارع أن يبني له سجنا في قصره، كان المعماري العبقري قد جرب قسوة السجن قبل ذلك، فقام كما تروي الأسطورة، بتصميم سجن يوجد في كل زنازينه ثقب يتيح للسجين أن ينظر من خلاله بحرية وأن يدخل النور إلى زنزانته ليبدد وحشتها، وبعد أن انتهى من بناء القصر اختفى تاركا رسالة للسلطان كتب فيها: «من يحاول سد هذه الثقوب سيهدم القصر من أساسه فقد بنيته اعتمادا على ضوئها وستنصب عليه الكوارث ولن ينقذه حسبه ونسبه وطغيانه أبدا».

هذه هي الكتابة بالنسبة لي، قد لا تهدم السجن، وقد تدخل صاحبها إلى السجن، لكنها ستظل دائما وأبدا ثقبا في جدار الصمت،

يُبقي حلم الحرية حيا لدى المساجين، ستظل بصيص النور الذي يبدد وحشة الزنازين، والطنين الذي يقض مضاجع الطغاة الذين يحبون ألا يعلو صوت فوق صوتهم، الذي يدعون كذبا أنه صوت المعركة، فإذا كنت عاجزا عن توسيع ثقب زنزانتك بيديك، فلا تستكثر على أمثالي محاولة توسيعه، لعلنا يوما نخرج من سجن الواقع المقبض المقرف إلى دنيا الله الواسعة الرحبة، وياسيدي إذا كان لديك فائض من يأس فابخل به علينا، وايأس قدّام باب بيتكو.

بخصوص فيلم الحياة!

سبحان الله يا أخي. تظل الحياة الفيلم الوحيد الذي لانغضب إذا قام الآخرون بحرقه لنا. على العكس نحن نتمنى ذلك دائما. قل لي بالله عليك كم مرة ضبطت نفسك شغوفا بالجلوس إلى شيخ متخم بتجارب الحياة لتعرف منه كيف سيكون الحال عندما نقترب من الوصول إلى آخر الخط. المشكلة أن الحياة برغم كل مانسمع ونقرأ ونرى بخصوصها تظل هي الفيلم الوحيد غير القابل للحرق. وربما لذلك لانكف أبدا عن رمي آذاننا لكل من يدعي معرفة نهاية فيلم الحياة ذي العرض المستمر.

لاحول ولاقوة إلا بالله. هذه أسوأ مقدمة في الدنيا يمكن كتابتها في حضرة كتاب جميل مثل كتاب «منعطف الثمانين» للروائي الأمريكي الأشهر هنري ميللر (يشكر ويثاب المترجم محمد السيد صالح، ودار خطوات السورية على وضعهما له في طريق القارئ العربي الوعرة). بيني وبينك من شدة انبهاري بالكتاب حاولت كثيرا أن أفتتح هذا المقال بجملة واحدة لا شريك لها تقول: « دعك اليوم من كل مايحيط بك من

قبح واستعن على وعثاء الحياة بهنري ميللر الذي يقول لك التالي»، لكنني وجدت أن في ذلك حكمة بالغة لاتتناسب مع سن الطيش التي أعيشها، لذلك قررت أن أكتب لك هذه المقدمة التي أخجلتني من نفسي وأنا أكتبها ومع ذلك واصلت كتابتها، مقدمة «عيالي» تذكرك بما كنا نفعله ونحن زغب الحواصل، عندما كنا نحصل على شيء ثمين من وجهة نظر هاتيك الأيام، مجلد سوبر ميكي مثلا، أو عدد خاص من مجلة الشبكة، أو بون سينما لخمسة أفراد، أو ورقة بخمسة جنيهات جديدة تمكنا من سرقتها للتو، فنذل أقراننا بأي مما ملكناه ونحنّسهم به قبل أن نشركهم معنا في الاستمتاع به. عيب، كبرنا على هذا الكلام الآن، لذلك ينبغي أن أتوقف عن أي رغبة دفينة في مزيد من التحنيس لأتركك فورا في حضرة مقتطفات كاملة من هذا الكتاب البديع الذي يحمل رؤية المقترب من آخر الخط هنري ميللر لكل هذه البوبينات المهولة التي شاهدها من فيلم الحياة، لعلك تكون بعدها أكثر هدوءا وروية أو لخبطة وفوضى وأنت تصنع نسختك الخاصة من فيلم الحياة.

يقول هنري ميللر فاسمعوا وإن أردتم فلا تعوا: « إن بلغت الثمانين وكنت غير مُقعَدٍ أو ذي عِلّة، وإن كان المسير الطويل مازال يمتعك وكذلك الوجبة الطيبة مع كل مايلازمها، إن كنت قادرا على النوم دون أن تتناول عقارا، وإن كانت الطيور والأزهار والجبل والبحر مستمرة بالإيحاء إليك فأنت على هذا أسعد الناس وعليك أن تركع على ركبتيك صباح مساء وتحمد الله القدير على رعايتك وحمايتك بعنايته. إذ حينما يكون المرء شابا بعدد السنوات لكنه مرهق الروح

فإنه يتحول إلى إنسان آلي... إن استطعت جرع الكأس دفعة واحدة أو استطاع زوج من النهود أن يؤججك، وإن استطعت أن تقع في الحب باطراد أو تغفر لذويك جريمة وجودك في هذا الكون، وإن كان لايهمك أن تعرف إلى أين تجري الحياة أو يكفيك استقبال كل يوم كما يحل، وإن كنت قادرا على العفو وكذلك النسيان أو أن تردع نفسك عن التحول إلى التسرع أو الشراسة، إلى الكآبة أو الصلف، حينئذ يا بُنَيّ تكسب أكثر من نصف حياتك.

هذه الأمور الصغيرة هي التي يُعتَدُّ بها وليس الشهرة أو النجاح أو الثروة، إذ في أعلى السلم، المكان نادر، بينما في أسفله أماكن كثيرة يحتلها الناس دون ازدحام أو دون أن يستطيع امرؤ أن يزعجك، ولاتعتقد لثانية أن حياة العبقرية مكللة بالورود، إنها بعيدة عن كل هذا فبارك لنفسك أنك لست شيئا على الإطلاق.

...النجاح المشهود في نظر هذا العالم هو نوع من الكوارث عند الكاتب الذي لديه شيء ليقوله، هذا مالم تتعلم الاقتيات ببرازك ذاتك. الكاتب في هذا المجال حيث تلزمه القدرة على تذوق أوقات الفراغ قليلا يجد نفسه مشغولا أكثر من أي وقت آخر، إنه ضحية هؤلاء المعجبين وذوي النوايا الحسنة وكل أولئك الراغبين بالاستفادة من اسمه، وعند هذه اللحظة يتكون نوع جديد من النضال يجب الشروع به وتصبح القضية معرفة كيفية الحفاظ على حريتك وعدم القيام إلا بما يروق لك. دائما ما يكتشف المرء برغم تجاربه الطويلة مع العالم واكتسابه فلسفة يومية قابلة للحياة أن الحمقى ما يزالون أكثر غباءً مما

مضى والمزعجون أكثر إزعاجا. إن الموت يطلب أصدقاءك والوجوه العظيمة التي كنت تحترمها الواحد تلو الآخر. وكلما هرمت تجدهم يختفون. وأخيرا تجد نفسك واقفا لوحدك. إنك تشاهد أبناءك وأبناء أبناءك وهم يرتكبون ذات الأغلاط العبثية التي غالبا ماتحز في النفس، إنها نفسها التي كنت ترتكبها وأنت في عمرهم، ومامن شيء يمكنك قوله أو فعله لمنعهم عن ذلك، وفي الحقيقة أنك بمراقبة الشباب يمكنك أن تفهم أي غبي كنته فيما مضى وأي غبي ماتزال.

إن كان هناك شيء أجده اليوم عاديا فهو أن الطابع الأساسي للكائنات لايتبدل مع مرور السنين، وفيما عدا بعض الحالات النادرة تقريبا، فإن الناس لايوسعون أفقهم ولايتطورون، فشجرة السنديان تظل شجرة سنديان، والخنزير خنزيرا، ومحدود الذكاء محدود الذكاء... الأشخاص الذين كنت تزدريهم في المدرسة ستكرههم كذلك يوم يصبحون رجال مال أو رجال دولة أو جنرالات بخمس نجوم... إن الحياة تعطينا قسرا عدة دروس، فهي لاتعلمنا بالضرورة أن نكبر. فيما يخص العالم بعامة فإنه لايبدو لي أفضل مما كان عندما كنت في سن الثامنة فحسب بل إنه أدنى بألف مرة.

وأنا في الثمانين أحكم على نفسي بأنني أكثر مرحا مما كنت في سن العشرين أو الثلاثين، لقد فقدت بين حين وآخر الأوهام، لكنني عرضا احتفظت بحماسي وفرحي بالحياة وفضولي الذي لايرتوي، وربما كان فضولي تجاه كل شيء وكل الناس هو الذي جعل مني الكاتب الذي أنا هو. لم يفارقني أبدا ذلك. حتى أسوأ المزعجين

يمكنه أن يوقظ اهتمامي إن كنت في حالة مزاجية تتيح لي الإصغاء. إضافة إلى ذلك هناك خاصية أخرى أوثرها كثيرا، إنها الإحساس بالإعجاب، إذ مهما ضاق العالم عليّ لايمكنني أن أتصوره يتركني خاليا من الإعجاب بشيء.

ثم يكمل الثمانيني الفتيّ هنري ميللر: بلغك الله مابلغه من عمر وأنت على ماهو عليه، من صحة وصفاء روح وفوران عقل وفوضى مشاعر قائلا: «لقد سخرت كثيرا وكثيرا من شروط الحياة التي نعيش، وكففت عن الاعتقاد بالقدرة على معالجتها. إنني لاأجد شخصا حتى من أعظم عظماء الأمس واليوم قد استطاع أو يستطيع تغيير الشرط البشري بحق. مايخشاه الناس كثيرا وهم يفكرون بالشيخوخة هو عدم القدرة على تكوين أصدقاء جدد، ولكن من لديه هبة اجتذاب الأصدقاء لن يفقد ذلك أبدا مهما بلغ من العمر».

الصداقة في رأيي بعد الحب أثمن ثروة تقدمها الحياة... النقطة الوحيدة التي ألححت عليها تجاه الجميع دون تفريق بين الطبقات والمراكز كانت على الدوام المقدرة على التحدث بصراحة، فإن لم أستطع السماح لنفسي بالانفتاح بشكل صريح تجاه صديق أو لم يتقبل هو ذلك أسقطه من حسابي. إن المقدرة على أن تكون صديقا لامرأة وبخاصة تلك التي تحب، تشكل عندي الكمال المطلق، إذ إن الحب والصداقة قلما يتسايران. من السهل جدا أن يرتبط المرء بالصداقة مع رجل أكثر مما هي الحال عند المرأة وبخاصة إذا كانت جذابة. لم أعرف في حياتي سوى بضعة أزواج كانوا أصدقاء بقدر ما هم أحبة.

قد تكون أعظم تسلية لشيخوخة ظريفة هي امتلاك القدرة المتزايدة على عدم الاهتمام بالأمور بجدية زائدة. إن أحد الفوارق الكبيرة بين الحكيم الحق والواعظ هو المرح، إن ضحك الحكيم ينبع من أعماقه أما الواعظ إن ضحك وهو لايضحك غالبا فهو يشيح بوجهه عند الضحك.

... أيها الشاب لقد كنت أقلق كثيرا من حالة هذا العالم، واليوم رغم أني أستمر في الحنق والغيظ يكفيني بكل طيب أن أرثي لحال الأمور... وهذا يعني أنني قد كسبت تواضعا يجعلني أعي حدودي وحدود إخوتي بني البشر. فأنا لاأحاول إقناع الآخرين بوجهة نظري أو إشفاءهم، وكذلك لاأرغب أن أستخلص شعورا بالتعالي وبأنهم ينقصهم الذكاء، إذ يمكنني أن أكافح الشر والحمق غير أنني غير مسلح... لقد قبلت بالواقع مهما قسا، واقع إن الكائن البشري ينحدر نحو نوع من السلوك تخجل منه الحيوانات. السخرية والمأساة أننا غالبا نسلك سلوكا غير مسئول تجاه أنبل الأسباب، إذ إن الحيوان لايعتذر عن قتل فريسته، أما الحيوان البشري فهو قادر على إثارة التبريك الإلهي من أجل قتل الإخوة والأخوات، وينسى أن الله ليس معه ولكنه إلى جانبه.

... أن تكون قادرا على تبجيل الآخرين دون أن تتعثر بخطاك هو شيء أساسي في نظري، وأن يكون لك معلم أيضا هو شيء أكبر أهمية، وجملة القول هو معرفة أين وكيف تجد واحدا من هؤلاء... غالبا ما نجد كثيرا مما يجب تعلمه من طفل أكثر مما نجد عند معلم مرشد

جذاب... إن ماندعوه تربية ليس عندي سوى الإبهام المطلق والمعيق للتطور، ورغم كل الانقلابات الاجتماعية والسياسية التي اجتزناها، ظلت في نظري على الأقل طرق التربية المسموح بها في كل العالم المتمدن على ماهي عليه من حيث قدمها وتخريفها، فهي تسهم في تكريس الأمراض التي تجعل منا عجزة، لقد قال ويليام بلاك: نجد الحكمة عند نمور السباق أكثر مما نجدها عند بغال التعليم. لقد تعلمت من الأغبياء والنكرات أكثر مما تعلمت من المدرسين. فالمثقف هو الحياة وليس وزارة التربية، ومهما بدا ذلك غريبا فإنني أميل إلى الوفاق مع ذلك النموذج البائس للنازية الذي كان يصرخ: حين أسمع كلمة ثقافة أتحسس مسدسي.

... لنعد إلى الإنسانية، إلى الإنسانية العادية، ولتذهب إلى الشيطان نظاراتكم ومجاهركم وتلسكوباتكم وتفاوتاتكم القومية والدينية وتعطشاتكم للسلطة ومطامحكم المبهمة... ضعوا كل الأمور في حسبانكم ولكن دون أن تفقدوا أبدا حس الفكاهة. فالحياة ليس فيها أمر أبدي الجدية. وفيها كل الفكاهة والمأساة معا. فأنت الممثل والقطعة التمثيلية معا. وأنت كل ماهو موجود لاأكثر ولا أقل... إذا استهدفنا تغيير العالم أو جعله متحركا فأيّ طريقة أفضل من التلويح بالمرآة لنشاهد فيها ذواتنا على حقيقتها بحيث نستطيع الضحك من ذواتنا ومن قضايانا. إن الفكاهة التي تضع النقاط على الحروف هي أجدى من سيف الساموراي، ولو قيض لهتلر رجل يضحكه ربما أنقذ الملايين من الحيوات.

... يتعلم المرء لعب اللعبة ليس بالمحافظة على القواعد ولكن بالإحاطة بها إذ لاتوجد مدرسة يتعلم بها المرء الفن سوى الحياة ذاتها. يمكن للمرء أن يأمل بالحياة، هذا كل مافي الأمر، ولكن لذلك لايوجد معلم، فلكل فرد أن يكتشف بنفسه، ويجد الطريق ويلتحم بها، إن النقد الساخر يرغب أن تكون الغلطات التي يقع فيها الإنسان مهمة بل أكثر أهمية من المكتشفات الصالحة، وتتلاحق المحن والغلطات حتى يعدل المرء عن المحاولة، وهو ما يجعله عن طيب خاطر يقول إنه سيعدل عن تحطيم جبهته بالاستمرار في ضربها في الحائط. إن الجندي منذ دخوله إلى المعركة لايحلم وبعناد إلا بالسلام. وقد يحلم القادة بالنصر لكنهم ليسوا هم الرجال المقاتلين بحق.

يسألني الناس في الغالب لو وجب عليك أن تعود لبدء حياتك بتمامها من جديد، هل ستكرر نفس الأخطاء؟ فيما يخص الحب أنا غير قادر على الإجابة، أما فيما يخص رسم اللوحات المائية نعم. أحد الأشياء المهمة التي تعلمتها وأنا أرسم هو أن لا أهتم كثيرا، وأعتقد أن بيكاسو قد قال: كل لوحة ليست بالطبع رائعة، وهذا صحيح، الرسم هو الأساس، الرسم كل يوم، وليس صناعة الروائع.

... إننا نستطيع أن نجد في أبسط الأغراض كل مانبحث عنه سواء الجمال، الحقيقة، الواقع أو الألوهية، إن الفنان لايخلق هذه الصفات وإنما يكتشفها أو يزيح الستار عنها بمقدار فعله، فعندما يشعر بالطبيعة الحقة لدوره يمكنه أن يتابع الرسم دون خوف من أن يخطئ لأنه يعرف أن الرسم أو عدم الرسم يعود إلى الذات فحسب. نحن لانغني لأننا

نأمل بالظهور ذات يوم في دار أوبرا، بل نغني لأننا نملك رئتين مليئتين بالفرح. إنه أمر رائع أن نحضر مشهدا جميلا، لكن الأكثر روعة هو أن تلتقي في الشارع بمشرد مسرور لايستطيع أبدا التوقف عن الغناء كما لايستطيع التوقف عن التنفس ولاينتظر أيضا أقل مكافأة على جهوده. جهود! إنها كلمة ليس لها معنى عنده... هكذا إذا يسقط العالم ذات يوم قطعا أولا وتصبح في معسكر الملائكة أو تصبح الشيطان ذاته، في الحالين خذ الحياة كما هي، وادفع نفسك فيها، وانشر البهجة والفوضى».

عُلِم ويُنَفّذ ياعم هنري.

استعينوا بـ «أحلى الكتب» على مرار الزمن ووعثاء الحياة!

لأنني أحب الكتابة عن الكتب والحديث عن الكتب بمناسبة وبغير مناسبة، كنت أتلقى خلال كتابتي المنتظمة في الصحف مع كل معرض للكتاب سيلا من طلبات الترشيح لما أراه من الكتب أولى وأحق بالاقتناء والقراءة. ولذلك صنعت هذه القائمة التي تضم عددا من أحلى الكتب التي أحب قراءتها دائما وأبدا، والتي يمكن أن تضم إليها الكتب التي تحدثت عنها في هذا الكتاب، مع رجائي أن تتذكر دائما أن هذه القائمة هي قائمة شخصية عشوائية مكتوبة من الذاكرة عمدا، ولا يوجد أي منطق في اختيارها سوى أنني استمتعت بقراءة كل ما فيها وأضمن لك برقبتي أنك ستعيد قراءة أغلبها أكثر من مرة دون أن تمل، لاحظ أن رقبتي سدادة كما يمكن أن يبدو لك من حجمها في الصورة، قد ترى أن هناك كتبا أكثر حلاوة مما اخترته، وبالتأكيد هناك كتب أحلى وأجمل وأهم سقطت من ذاكرتي «النقاواتية»، وربما كان ذلك حافزا لأن تصنع لنفسك قائمة تخصك من أحلى الكتب،

تتفوق على هذه القائمة الشخصية التي آمل ألا تحرم نفسك منها أو مما استطعت إليه منها سبيلا. بس والنبي لما تنبسط ادعي لي.

الكتب الأكثر إمتاعا:

- محمود عوض: متمردون لوجه الله (دار المعارف)
- محمود السعدني: مصر من تاني (أخبار اليوم)
- صلاح عيسى: حكايات من دفتر الوطن (كتاب الأهالي)
- رجاء النقاش: نجيب محفوظ صفحات من مذكراته وأضواء جديدة على حياته وأدبه (الأهرام - دار الشروق)
- يحيى حقي: خليها على الله (نهضة مصر)
- صافي ناز كاظم: تلابيب الكتابة (كتاب الهلال)
- محمد المخزنجي: حيوانات أيامنا (دار الشروق)
- إبراهيم أصلان: خلوة الغلبان (دار الشروق)
- إبراهيم عبد القادر المازني: صندوق الدنيا (دار الشروق)
- فتحي رضوان: عصر ورجال جزآن (الهيئة العامة لقصور الثقافة سلسلة ذاكرة الكتابة)

الأحلى في الإبداع العربي:

- نجيب محفوظ: ليالي ألف ليلة (دار الشروق)
- يوسف إدريس: حادثة شرف (نهضة مصر)

ـ بهاء طاهر: الحب في المنفى (روايات الهلال)

ـ علاء الديب: ثلاثية علاء الديب (دار الشروق ـ روايات الهلال)

ـ إبراهيم عبد المجيد: بيت الياسمين (دار الشروق)

ـ خيري شلبي: وكالة عطية (دار الشروق)

ـ جمال الغيطاني: الزيني بركات (دار الشروق)

ـ فتحي غانم: ست الحسن والجمال (دار الهلال)

ـ علويّة صُبح: مريم الحكايا (دار الآداب)

ـ فؤاد التكرلي: المسرات والأوجاع (دار المدى)

ـ حجاج أدول: ثنائية الكُشَر (الحضارة للنشر)

ـ رضا البهات: شمعة البحر (المجلس الأعلى للثقافة)

ـ إميل حبيبي: الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل (مركز الدراسات الفلسطينية)

ـ يحيى حقي: دماء وطين (نهضة مصر)

ـ سعد مكاوي: السائرون نياما (دار الشروق)

ـ سعد الله ونوس: الأعمال المسرحية الكاملة (دار الآداب)

ـ عبد الحكيم قاسم: أيام الإنسان السبعة (دار الشروق)

ـ رضوى عاشور: الطنطورية (دار الشروق)

الأحلى في الأدب العالمي:

- جابرييل جارسيا ماركيز: الحب في زمن الكوليرا (المدى)
- إيزابيل الليندي: بيت الأرواح (الأهالي للنشر سوريا)
- ماريو بارجاس يوسا: حفلة التيس (دار المدى)
- فيدور دوستويفسكي: الشياطين والأبله (الهيئة المصرية العامة للكتاب)
- عزيز نيسين: الطريق الوحيد (دار المدى)
- إيفو أندريتش: جسر على نهر درينا (المؤسسة العربية للدراسات والنشر)
- إيليف شفق: قصر القمل (دار قدمس للنشر)
- باتريك زوسكيند: العطر قصة قاتل (دار المدى)
- ميلان كونديرا: غراميات مرحة (دار الآداب)
- اسماعيل كاداريه: من أعاد دورونتين (دار الآداب)
- جورجي أمادو: تيريزا باتيستا (دار العودة)
- جورج أورويل: متشردا في باريس ولندن (دار المدى)
- يشار كمال: ميميد الناحل (دار الفارابي)
- كارلوس فوينتس: موت أرتيميو دي كروث (المجلس الأعلى للثقافة).

ـ أنطون تشيخوف: مختارات في ٤ أجزاء (دار رادوغا ـ دار التقدم ـ دار الشروق)

ـ إيزابيل الليندي: حصيلة الأيام (دار المدى)

ـ جوزيه ساراماجو: كل الأسماء (دار المدى)

ـ أنتونيو سكارميتا: عرس الشاعر (دار المدى)

ـ لويس سبولبيدا: العجوز الذي كان يقرأ الروايات الغرامية (دار ورد)

ـ بابلو نيرودا: أشهد أنني عشت (المؤسسة العربية للدراسات والنشر)

الأحلى في الإسلاميات:

ـ فهمي هويدي: القرآن والسلطان (دار الشروق).

ـ حسين أحمد أمين: دليل المسلم الحزين (مكتبة مدبولي ـ دار العين)

ـ أحمد بهجت: مسرور ومقرور (دار الشروق)

ـ جمال البنا: كلا ثم كلا (دار الفكر الإسلامي)

ـ محمد الغزالي: السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث (دار الشروق)

ـ محمود أبو ريّة: أضواء على السنة المحمدية (دار المعارف).

- د. يوسف القرضاوي: الإيمان والحياة (مؤسسة الرسالة)

- د. محمد عمارة: مسلمون ثوار (دار الشروق)

- د. محمد حسين هيكل: حياة محمد (دارالمعارف)

- خالد محمد خالد: الدين للشعب (دار الكتاب العربي)

الأحلى شعرا:

- ديوان أبي الطيب المتنبي (دار المعارف مكتبة مصر)

- عبد الرحمن الأبنودي: يامنة وقصائد أخرى مختارات (أطلس للنشر)

- محمود درويش: الأعمال الشعرية الجديدة (رياض الريس)

- أمل دنقل: الأعمال الشعرية الكاملة (المجلس الأعلى للثقافة)

- أدونيس: ديوان الشعر العربي مختارات شعرية في ثلاثة أجزاء (دار المدى)

- صلاح عبد الصبور: الأعمال الشعرية الكاملة (الهيئة المصرية العامة للكتاب)

- صلاح جاهين: أشعار بالعامية المصرية (الأهرام).

- بيرم التونسي: المجموعة الكاملة لشاعر الشعب (مكتبة مصر)

- فؤاد حداد: الأعمال الكاملة (الهيئة العامة لقصور الثقافة)

ـ الشوقيات: أحمد شوقي (طبعات متعددة)

ـ ديوان حافظ إبراهيم (المجلس الأعلى للثقافة)

ـ محمود حسن اسماعيل: مختارات (مكتبة الأسرة)

ـ محمد الماغوط: الفرح ليس مهنتي (دار المدى)

الأحلى في كتب التاريخ:

ـ أحمد أمين: فجر الإسلام (مكتبة الأسرة ـ دار الشروق ـ النهضة المصرية)

ـ طه حسين: الفتنة الكبرى (دار المعارف)

ـ جيمس هنري برستيد: فجر الضمير (مكتبة مصر)

ـ طارق البشري: الحركة السياسية في مصر (دار الشروق)

ـ أمين معلوف: الحروب الصليبية كما رآها العرب (دار الفارابي)

ـ د. نعمات أحمد فؤاد: شخصية مصر (الهيئة المصرية العامة للكتاب)

ـ محسن محمد: التاريخ السري لمصر (دار المعارف)

ـ د. عبد العظيم رمضان: الصراع بين العرب وأوروبا (دار المعارف)

ـ عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية (دار المعارف)

- هوارد زين: التاريخ الشعبي للولايات المتحدة (المجلس الأعلى للثقافة)
- أريك دورتشميد: دور الصدفة والغباء في تغيير مجرى التاريخ (دار المدى)
- إسرائيل شاحاك: أسرار مكشوفة (شركة المطبوعات للتوزيع والنشر)
- ستيفان تسفايج: ساعات القدر في تاريخ البشرية (دار المدى)
- كمال النجمي: يوميات المغنين والجواري (دار الهلال)
- ستيفن أوزمنت: التاريخ من شتّى جوانبه (الهيئة المصرية العامة للكتاب)
- محمد التابعي: مصر ماقبل الثورة (دار المعارف)
- صبري أبو المجد: سنوات ما قبل الثورة ٤ مجلدات (الهيئة المصرية العامة للكتاب)
- محمد جلال كشك: ودخلت الخيل الأزهر (الزهراء للإعلام العربي)
- خالد فهمي: كل رجال الباشا (دار الشروق)
- قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك (دار الشروق)
- لطيفة محمد سالم: عرابي ورفاقه في جنة آدم (دار الشروق - الأنجلو المصرية)

ـ محمد عبد الله عنان: مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام (مكتبة الخانجي)

الأحلى في كتب الشخصيات والتراجم:

ـ محمود عوض: أفكار ضد الرصاص (دار المعارف)

ـ محمود السعدني: مسافر على الرصيف (الأهرام)

ـ على الطنطاوي: رجال من التاريخ (دار الجيل)

ـ محمد عودة: سبعة باشوات وسبع صور (الكتاب الذهبي: روز اليوسف)

ـ يوسف الشريف: ممّا جرى في بر مصر (دار الشروق)

ـ أحمد أمين: زعماء الإصلاح في العصر الحديث (دار الكتاب العربي)

ـ عايدة الشريف: شاهدة ربع قرن (الهيئة المصرية العامة للكتاب)

ـ محمد عبد الله عنان: تراجم إسلامية وعربية وأندلسية (مكتبة الخانجي)

ـ الصافي سعيد: الحمى ٤٢ (مكتبة بيسان)

ـ د. محمد حسين الأعرجي: أجداد وأحفاد (دار المدى)

ـ محمد حسنين هيكل: زيارة جديدة للتاريخ (دار الشروق)

ـ د. غالي شكري: المثقفون والسلطة في مصر (أخبار اليوم)

- عبد المنعم شميس: عظماء من مصر (دار المعارف)
- سليمان فياض: كتاب النميمة (دار مصر المحروسة)
- صالح مرسي: هُم وأنا (مدبولي الصغير)
- مصطفى أمين: مسائل شخصية (أخبار اليوم)
- عصام محفوظ: ماذا يبقى منهم للتاريخ (رياض الريس)
- جمانة حداد: صحبة لصوص النار: حوارات مع كتاب عالميين (دار أزمنة)
- هاشم النحاس: محاورات صلاح أبو سيف (الهيئة المصرية العامة للكتاب)
- سناء البيسي: سيرة الحبايب (دار الشروق)

أحلى السّير الذاتية:

- توفيق الحكيم: يوميات نائب في الأرياف (دار الشروق - مكتبة مصر)
- د.جلال أمين: ماذا علمتني الحياة (دار الشروق)
- عباس محمود العقاد: حياة قلم (نهضة مصر)
- أحمد بهاء الدين: محاوراتي مع السادات (دار الهلال)
- د. سيد عويس: التاريخ الذي أحمله على ظهري (دار العين)

ـ موسى صبري: خمسون عاما في قطار الصحافة (دار الشروق)

ـ أنيس منصور: في صالون العقاد كانت لنا أيام (دار الشروق)

ـ د. إدوارد سعيد: خارج المكان سيرة ذاتية (دار الآداب)

ـ د. لويس عوض: أوراق العمر (مكتبة مدبولي)

ـ طه حسين: الأيام (دار المعارف)

ـ مريد البرغوثي: رأيت رام الله (دار الهلال ـ دار الشروق)

ـ د. عبد الوهاب المسيري: رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمر (دار الشروق)

ـ د.عصمت سيف الدولة: مذكرات قرية (كتاب الهلال)

ـ التكوين في حياة المفكرين والأدباء (كتاب الهلال)

ـ خالد محيي الدين: والآن أتكلم (مؤسسة الأهرام)

ـ مذكرات نوبار باشا (دار الشروق)

أحلى كتب المقالات:

ـ محمود عوض: بالعربي الجريح (دار المعارف)

ـ أحمد أمين: مجلدات فيض الخاطر (مكتبة الآداب القاهرة)

ـ مصطفى صادق الرافعي: مجلدات من وحي القلم (مكتبة الأسرة)

ـ فاروق عبد القادر: من أوراق الرفض والقبول (شرقيات)

- محمد عفيفي: ضحكات صارخة (أخبار اليوم)

- محمد الماغوط: سأخون وطني (رياض الريس)

- سناء البيسي: مصر ياولاد (نهضة مصر)

- كامل زهيري: مائة امرأة وامرأة (مكتبة الأسرة)

- د.زكي مبارك: الحديث ذو شجون (الهيئة المصرية العامة للكتاب)

- محمد مستجاب: تنميل الدماغ (مكتبة الأسرة)

- سامي السلاموني: المقالات النقدية الكاملة (الهيئة العامة لقصور الثقافة)

- الطيب صالح: في صحبة المتنبي ورفاقه سلسلة مختارات (رياض الريس)

- بهجت عثمان: ديوان بهاجيجو (المستقبل العربي)

- حجازي فنان الكاريكاتير العظيم: مختارات محمد بغدادي (المركز المصري العربي)

- صلاح عيسى: تباريح جريح (مكتبة مدبولي)

الأحلى في كتب التراث:

- الجاحظ: رسائل الجاحظ (دار الكتب العلمية)

- أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة (دار الكتب العلمية)

- ابن إياس: بدائع الزهور ووقائع الدهور (المكتبة التوفيقية)
- عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد (دار الشروق - دار النفائس)
- ابن حزم: طوق الحمامة (دار الهلال)
- ابن قتيبة: أدب الكاتب (دار الكتب العلمية)
- الإبشيهي: المستطرف في كل فن مستظرف. (دار الكتب العلمية)
- الجاحظ: البيان والتبيين (دار الكتب العلمية)
- الثعالبي: أحسن ماسمعت (دار الكتب العلمية)
- المبرد: الكامل (مؤسسة الرسالة)
- أبو العلاء المعري: رسالة الغفران (تحقيق كامل كيلاني منشورات كامل كيلاني)
- عبد السلام هارون: كناشة النوادر (مكتبة الخانجي)

كتب حلوة خارج التصنيف:

- د. مصطفى حجازي: التخلف الاجتماعي مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور (المركز الثقافي العربي)
- د. إمام عبد الفتاح إمام: الطاغية دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسي (عالم المعرفة)
- جلال آل أحمد: الابتلاء بالتغرب (المجلس الأعلى للثقافة)

ـ سيرل أيدون: فضولية العلم (دار الساقي)

ـ إدواردو جاليانو: أفواه الزمن (دار المدى)

ـ د.علي أومليل: السلطة الثقافية والسلطة السياسية (مركز دراسات الوحدة العربية)

ـ د.هشام جعيط: الفتنة (دار الطليعة)

ـ بيير بورديو وآخرون: بؤس العالم ٣ أجزاء (دار كنعان)

ـ د. زكي نجيب محمود: تجديد الفكر العربي (دار الشروق)

ـ أحمد زويل: عصر العلم (دار الشروق)

ـ د.علي الوردي: وعّاظ السلاطين (دار الكنوز الأدبية)

ـ هادي العلوي: شخصيات غير قلقة في الإسلام (دار المدى)

ـ د. زكريا إبراهيم: نداءات إلى الشباب العربي (مكتبة مصر)

ـ يوسف ميخائيل أسعد: الثقافة بين الأدب والفن (نهضة مصر)

ـ د. نبيل علي: الثقافة العربية وعصر المعلومات (عالم المعرفة)

ـ د.جمال حمدان: شخصية مصر (دار الهلال)

ـ د. رشدي سعيد: نهر النيل (دار الهلال)

ـ دلال البزري: السياسة أقوى من الحداثة (ميريت)

ـ أليكسي فاسيليف: مصر والمصريون (شركة المطبوعات للتوزيع والنشر)

- د. أحمد عبد الله رزة وآخرون: هموم مصر وأزمة العقول الشابة (مركز الجيل للدراسات الاجتماعية)

- بو علي ياسين: بيان الحد بين الهزل والجد دراسة في أدب النكتة (دار المدى)

- كينزي مراد: عبق أرضنا (دار ورد)

انتهت قائمتي الشخصية لأحلى الكتب، وانتهى معها الكتاب الذي أتمنى أن تضمه يوما إلى قائمتك الشخصية لأحلى الكتب، وسواء فعلت أو لم تفعل، سآمل أن تبدأ الآن في الدعاء لي بالصحة والستر والعافية ودوام القدرة على قراءة الكتب والكتابة عنها.

اللهمّ استجب.

في أحضان الكتب...

لأنني أحب الكتابة عن الكتب والحديث عن الكتب بمناسبة وبغير مناسبة، كنت أتلقى خلال كتابتي المنتظمة في الصحف مع كل معرض للكتاب سيلا من طلبات الترشيح لما أراه من الكتب أولى وأحق بالاقتناء والقراءة. ولذلك صنعت هذه القائمة التي تضم عددا من أحلى الكتب التي أحب قراءتها دائما وأبدا، والتي يمكن أن تضم إليها الكتب التي تحدثت عنها في هذا الكتاب، مع رجائي أن تتذكر دائما أن هذه القائمة هي قائمة شخصية عشوائية مكتوبة من الذاكرة عمدا، ولا يوجد أي منطق في اختيارها سوى أنني استمتعت بقراءة كل ما فيها وأضمن لك برقبتي أنك ستعيد قراءة أغلبها أكثر من مرة دون أن تمل، لاحظ أن رقبتي سدادة كما يمكن أن يبدو لك من حجمها في الصورة، قد ترى أن هناك كتبا أكثر حلاوة مما اخترته، وبالتأكيد هناك كتب أحلى وأجمل وأهم سقطت من ذاكرتي «النقاواتية»، وربما كان ذلك حافزا لأن تصنع لنفسك
أحلى الكتب، تتفوق على هذه القائمة الشخصية التي آمل ألا ت
أو مما استطعت إليه منها سبيلا. بس والنبي لما تنبسط ادعي



دار الشروق
www.shorouk.com